سادر الكتب

رحاب لؤي

رواية

قرية المائة

جائزة شيخ زايد للعمل الروائي الأول

دار الشروق

قرية المائة

رحاب لؤي

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

تصنيف الكتاب: روايـة

© دار الشروق

٧ شـارع سيبويـه المصـري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

www.shorouk.com

dar@shorouk.com

رقـم الإيـداع ..../ .....

ISBN 978-977-09-3893-5

إهداء

إلى أمي التي علمت نفسها بنفسها الأبجدية

لتعلمني القراءة والكتابة.. لولاك ما كنت شيئا!

كانت قدما داود العاريتان، تُحاولان اللحاق بأخفاف سرب الجِمال الجامحة، نحو أرض جابر، تحمل على ظهورها كميات ضخمة من قش الأرز، ترمح بخفة وسهولة، خفافها لينة ورحبة، ما إن تلمس الأرض حتى تتسع بالقدر المطلوب، فلا تغوص، ولا تزول. ظلّ داود يتعثر داخل جلباب أخيه الأكبر، يلفح وجهه الهواء البارد، وتزكمه الأتربة المتصاعدة، يخشى السقوط في الترعة التي يمشي على حافتها، عن يمينه، ويرعبه السقوط أسفل أخفاف الجِمال عن يساره، فالتزم ذلك المسار الضيق بصعوبة، حيث واصل الدحرجة حينًا، والهرولة حينًا.

ما إن وصلت إلى الأرض أخيرًا، حتى استقبلها جابر مهللًا: «يا مرحبا بالزوامل شيالات المحامل».

كان موسم زراعة البرسيم على الأبواب، قارب سبتمبر على الانتهاء، ولم يعد ثمة وقت، إذا تأخروا فسوف تموت البادرات ويتأخر الحش، هكذا انخرط جابر بمساعدة أبنائه في العمل، لم يكن يوقفهم سوى الألم المتصاعد من تلك الشقوق التي تركها برد سبتمبر في أقدامهم، كانت الجروح الصغيرة تستحيل نارًا حارقة مع الوقت.

ينثرون قش الأرز في أنحاء الأرض، تلك هي المهمة الأسهل بالنسبة لداود، هكذا يساوي الأعواد الجافة فوق سطح التربة، تخدشه حين يسير فوقها، تاركة خرائط على جلده، فلا يعيرها انتباهًا، يكاد يبكي حين يصير الجرح جديًا، لكنه يتماسك؛ فالرجال لا يبكون.

انتهى دوره أخيرًا، وجاء دور الثيران، عند هذه النقطة أطلق زفرة الخلاص.

الآن سوف يحصل على مكافأته، حيث يجلس فوق دكة خشبية، تعلو المحراث، فيما تجره الثيران في أنحاء الأرض. يتأمل مشهد القش الثائر، كيف يهدأ فجأة تحت أقدام الحيوانات التي تغطّى عيونها، فلا تنتبه لسنون المحراث المحكمة في الخلف، وهي تُسوّي الأرض، في انتظار زيّتين اثنتين، يختفي أثر القش من بعدهما.

يوم شاقّ، لم يكن أشق منه سوى هذه اللحظة، اقترب المغرب وانتهى العمل، وصار لا بد من العودة إلى البيت، لو أن ثمة مكانًا آخر يمكن الذهاب إليه، لطار كل منهم إلى هناك، لكن لا مفر، هكذا ساروا جميعًا، يقدم أحدهم قدمًا، ويؤخر الثانية، بينما صدورهم ضيقة حرجة، كأنما تصعّد إلى السماء شيئًا فشيئًا فلا تصل.

***

كان أسوأ ما يمكن أن تُعده زوجة عوض في مطبخها على الإطلاق هو الدجاج، أخبرتها جارتُها أنها لا تُحسن الذبح؛ لذا تستغرق دجاجاتها وقتًا طويلا في «الفرفرة»، تتشرب دماءها، فيصير مذاقُها ورائحتها مشبعان بالزفارة، رغم كل محاولاتها لتنظيفها.

تململت حُسنية في وقفتها، على قدميها المتورمتين، فراحت تستبدل قدمًا بأخرى، لكن آلام قدميها كانت أقل ما

يشغلها، كما لم تَعنِ لها الدموع المتساقطة من عينيها بسبب البصل الذي يلوث يديها، أو حتى رائحة الزفارة الشديدة؛ شيئًا. أنهت خرط البصل وقطعت دجاجتها، وأشبعت الصينية بسائل الطماطم أحمر اللون، ثم وقفت تعصر مُخها، لتتذكر إن كانت قد وضعت الملح، أم لا.

«لماذا لا تُشبه هذه المرة كل المرات السابقة؟». قالتها في نفسها بينما راحت تمشي ببطء صوب الفرن الموقد كي تُسوّي صينية الدجاج بالبطاطس، دفعتها إلى الداخل، كأنما تتخلص من جرم ارتكبته للتو.

مظهر بطنها هذه المرة مختلف للغاية، كذلك قدرتها على الحركة، قالت لها إحدى الجارات إن جنينها قد يكون أنثى. «البنت بتحلّي أمها، وإنتِ احلوّيتِ في الحمل دا يا حسنية»، لكنها ضحكت ساخرة وقالت لها بحقة شديدة: «بطني ما بتشيلش غير رجالة»، لم تكن ملاحظة جارتها الوحيدة من نوعها، فقد أمطرتها التعليقات من نساء القرية بأنها صارت مختلفة جدًا هذه المرة، لكن ما كانت تعرفه حقًا أن هذا الحمل هو الأصعب والأكثر ثقلًا بين كل المرات.

لم تكن ولادتها المتأخرة تُضايقها، بقدر القلق الذي راح يعتصر قلبها بشأن الأيام القليلة التالية، وما قد يحيق بها، وبواحد معين من أهل القرية، كان هذا هو همها الأكبر.

«مفيش واحدة بتقعد كل دا في العاشر، هتموتي لو ماولدتيش». قالتها لها الداية قبل يومين؛ حيث تخطت

حسنية ثلاثة أسابيع عقب تمام شهرها التاسع. كانت مرتعبة، فهي تعلم جيدًا أنه لا امرأة تنجو بجنين يرفض النزول.

قضت الليل تحقن قلبها الأفكار السوداء، بينما كان شخير عوض النائم إلى جوارها يملأ الأرجاء، وعواء الذئاب في الخارج يزيد الأجواء كآبة.

لم يكد شيخ الجامع القريب يؤذن لصلاة الفجر، حتى سارعت للقيام، كأنه إذن رسمي، أنها لم تعُد مُضطرة للبقاء في السرير، لم تكن قادرة على الحركة ولو خطوة واحدة، لكنها كانت مُضطرة لبدء مهام دارها، فلا أحد قد ينوب عنها، كما أن «الداية» أخبرتها أن الحركة الكثيرة كفيلة بتحقيق المراد.

راحت حسنية تبتلع كل الوصفات التي نُصحت بها؛ نصف كيلو تقريبًا من التمر، والكثير من زيت الخروع والقرفة، والأعشاب، التي أوصى بها عطّار القرية، من زنجبيل، ومريمية، ومغلي بقدونس. لم يحدث هذا كله نتيجة تذكُّر، اللهم إلا مزيدًا من التقلصات المؤلمة في أنحاء بطنها.

صحيح أن تلك الولادة، هي الأصعب والأطول على الإطلاق، كانت قد فقدت الأمل تقريبا في أن ترى مولودها، إلا أن الأكثر قسوة بالنسبة لها كانت ابتسامات زوجها الساخرة، عوض الذي كان يضحك من قلبه، في كل مرة تُبدي قلقها من جنين لا يأتي، مؤكدًا «فيها إيه، تروحي إنتِ ييجي غيرك، المهم هاتيلي الواد بالسلامة». لم تكن جُملته تلك تُريحها؛

فهي تعلم أنه لم يكن يمازحها، لكنه في المرة الأخيرة قبل يومين لم يضحك ككل مرة حين شكَت له طول الحمل وعذابه، فقط قال لها بجدية: «الحمير بس اللي بتولد بعد العاشر».

كانت حُسنية؛ وهي امرأة قمحية، مجعدة الشعر، متوسطة الطول، تمتلك أنفًا مدببًا، تكره الولادة وتخشى من علاماتها، أما الآن؛ فقد أضحت أمنية عزيزة المنال، التورّم ينتشر في أنحاء جسدها بسرعة، فيما يزداد شعورها أنها ليست بخير: «لو مُت العيال دول هيتربوا إزاي؟!».

ثمانية أبناء من عوض، ظلت عقب ولادة آخرهم سبع سنوات بلا إنجاب. ظنت أن هذا يكفي، لكن تقريع عوض المتواصل لها بأنها باتت عاقرًا ووصفه لها بـ«الأرض البُور» لم يكن سوى دافع لأن تحمل من جديد. لم تكن تعرف كيف، وقد صار أكبر أبنائها رجلًا، فيما بلغ أكثرهم، لكنها راحت تدعو الله بأن يرزقها طفلا آخر.

كانت على وشك الانتحاب بشأن مستقبلها الغامض، وجسدها الذي لم تعُد تشعر بأبعاده، فضلا عن آلام بطنها التي لا تبارحها. لم ينتزعها من أفكارها المخيفة سوى شلال الماء الدافئ الذي انهمر بين قدميها فجأة فاستحال خوفها حبورًا، وراحت تصرخ بهستريا لا تُناسب خبرتها في الولادات السابقة، صرخات كانت أقرب للسعادة منها للألم.

عاجلها ابنها الأكبر ليرى ما هنالك، ظن أن مكروهًا حاق بها،

فأخبرته: «هات الداية بسرعة».

***

كانت الدار مظلمة، باردة، وخالية من رائحة الطعام التي راحت تتصاعد من أفران الجيران. في موضع على الأرض. تكوّم داود، إلى جوار قط، نحيل، نظرا لبعضهما البعض بإرهاق، وعلى غير العادة، لم يداعبه داود، أو يهشه كي يفسح مكانًا للطعام، كان يعاني من حنين مُؤذٍ في صدره، وأنين مُتصاعد من معدته لفرط خوائها، لكن المعاناة لم تظل، تكفل أشقاؤه بإشعال لمبات الجاز، ووضع الطبلية في منتصف الدار تمامًا، كما اعتادت أمهم أن تفعل. فيما أخرج جابر الزلعة الأخيرة المتبقية من صُنع يديها.

«تلك إذن هي المكافأة». هتف داود في نفسه، بينما لمعت عيون الجميع، فجابر لم يكن يلجأ إلى الزلعات المتبقية، إلا للضرورة القصوى، تحديدًا عند تلك النقطة، حين لا يعود ثمة احتمال، لحنين، أو جوع.

بحذر، اغترف جابر قليلًا من الجبنة القديمة في طبق صغير، وبحذر أكبر، امتدت الأيدي، تلمّس الجبن القديم لمسًا، هكذا فعل الجميع، كأنه اتفاق مسبق، على أن تكون اللقم كبيرة، واللمسات خفيفة، لسطح الجبن. في تلك اللحظة، سرى صمت مطبق، غلف منزل الجوعى، حيث لم تكن اللقم تسد الجوع وحسب، ولكنها كانت تطفئ نيران الصدور المشتعلة حول «الطبلية».

برغم جوعه الشديد، تعمّد داود أن يكون بطيئًا جدًا، يقتطع لقمته بيد واحدة؛ هي اليمنى، كما علمته أمه، ليمسها مسًّا خفيفًا بسطح الجبن، كأنما يربت عليه، فلا يكاد يعلق باللقمة شيء، لكن هذا القليل كان يكفيه تمامًا.

انتبه الجالسون حول الطبلية لما يفعله داود. كان يتشمم غنيمته ببطء. يغمض عينيه، ويستنشق رائحة اللقمة، قبل أن يفتح فمه ليقضم قضمة صغيرة، يقتطعها بأسنانه، ويطبق بشفتيه على ما تبقى من لقمته، كأنما يرفض أن يتخلى عنها، لكن تلك القضمة الصغيرة في فمه كانت تُعوضه، فيلوكها ببطء شديد، مغمضًا عينيه، كأنما يحاول أن يستوعب اللحظة، أن يعيشها بكامل حواسه، حتى إنه راح يتخيل أن أمه لا تزال واقفة هناك خلفه، تُعد المزيد من الأطباق اللذيذة، كما اعتادت، حين كانت تلحق بالطعام، متأخرة جدًا، حتى يشبع الجميع. «أليس ذلك الطعام من صُنع يديها، إذًا هي هنا، بكل تأكيد». كانت تلك الفكرة تُهدئ من روعه وتمنحه أمانًا مؤقتًا.

لم يقطع الصمت سوى صوت جابر وهو يحمد الله على الشبع من بعد جوع، فقام ومن بعده أولاده، يضعون ما تبقى من غداء اليوم في النملية؛ لينضم إلى إفطار اليوم التالي.

***

«إيه العيل الجملي دا؟ ماسك فيكِ زي القراض». قالتها الداية لحسنية بعدما ذرعت الأخيرة المنزل جيئة وذهابًا

لساعتين لاحقتين، حتى أصبح الطّلْق لا يُطاق. راحت الداية تضغط على بطنها لعلها تجبر المولود السمين على النزول، إلا أن هذا زاد الأمر سوءًا، حيث انقطع نفسها لشدة الألم، فعجزت لثوانٍ عن الشهيق أو الزفير.

كان الألم لا يُحتمل، لكن، بين الطلقة والأخرى، ثمة براح خاطف، سمح لها بالتقاط أنفاسها، وربما التفكير في الخطوة التالية، إلا أن ملامح الألم اختفت عن وجهها فجأة، حين أتتها فكرة لم تخطر لها قبل هذه اللحظة: «يا ترى مين اللي هيروح قُصاد المولود؟». ارتعدت في خضمّ ألمها، من الإجابة، فقد كانت على يقين أن أحدهم سيتم اختياره، لكن الأفكار كلها تلاشت حين وصل رأس الصغير إلى حيث يمكن للداية أن تجذبه، في تلك اللحظة شعرت برحمها ينقسم إلى نصفين. «هل سأموت الآن؟». كانت روحها تنسلّ منها ببطء، حتى بات ضوء النهار خافتًا فجأة، وعلمت أنها قد تكون النهاية.

«هل يمكن أن أكون أنا المختارة؟». لم يخطر لها الأمر من قبل، لم تشعر أي من حسنية أو عوض بقلق يُذكر من المختار، ربما كان البيت الوحيد في القرية، الذي لم يخرج منه مختار، لهذا كانا ينجبان أبناءهما عن عَمْد، فليس ثمة ذكور نجباء ولا عجائز أو مرضى في بيتهم، كان الجميع يمقت عوض لذلك، لكنه لم يشعر بذنب يُذكر، فكان يفرض نفسه فرضًا على جلسات الرجال ليلًا، وحين يؤنبه أحدهم على فعلته، مرة بعد أخرى، يعلن بلامبالاة: «أمر الله هنعمل إيه؟».

«شكله دوري». قالتها في نفسها ثم استحال كل شيء إلى لا

شيء.

***

فوق ربوة عالية، على النيل، كان بيت «توفيق» غارقًا في الظلام، يتحاشى أهل القرية المرور به، رغم رغبتهم العارمة في رؤية صاحبه، لكنهم جميعًا يعلمون، أن مَن يدخل إلى هناك، هم المختارون فقط، المختارون لا يعودون، لم يحدث أن دخله أحدهم، بإرادته أو رغمًا عنه، وعاد، هكذا تتخذ الخطوات طريقها بعيدًا عنه، وعن صاحبه الذي لم يرَه أحد منذ زمن بعيد، وتنصرف العيون عمدًا، فلا ترتفع، كأنما سيصيبها العمى إن نظرت.

لم يكن حلول العصر، سوى بداية للوقت المنتظر، تغيب الشمس فيتهيأ رجال القرية، إلى الهروب خارج المنازل، في ذلك الوقت المحبب، حين تنهار الشمس، وتنحدر لأسفل شيئًا فشيئًا، تصل نسمات الليل لتبدد حرارة الظهيرة، وينطلق الجميع، نحو قاعة أحدهم، يُثرثرون، وفي الخلفية تُعلن صراصير الحقول عن نفسها شيئًا فشيئًا.

كان الاجتماع اليومي، هو جائزة سيدة جديدة، لن تجلس وحدها تلك الليلة، سوف تنهمك في إعداد أكواب الشاي، دورًا بعد آخر، ولن تفكر في أي شيء، سوى صوت ارتطام ملعقتها الصغيرة بجدار أكواب نمليتها.

في كل ليلة، تبدأ الحكايات من جديد، عن توفيق، العارف بالله القاطن أعلى الربوة، أمل القرية ومُنتهاها، الرجل رقم

١٠٠، الذي جاء ليُتمم أبناء القرية، وكانوا من قبله ٩٩.

مائة محظوظ، يتمنى أهل القرى المحيطة أن يكونوا منهم، هكذا يبعثون برُسلهم إلى رجل العمدة الجالس عند طرف القرية، ليُدون أسماءهم في كشف انتظار طويل، يتمنى أصحابه لو صاروا من بين الـ١٠٠ شخص، في قرية لا يجوع فيها بطن، ولا يعاني فيها نفر فقرًا، جنة يُزينها عارف بالله، يحميها من أن يغمرها النيل أو تحل بها النكبات، رجل صالح وقرية هادئة لم يعرف أهلها السرقة، ولم يصدر عنها ولو جريمة واحدة منذ زمن بعيد.

يقولون، في القرية التي لا تحمل أرضها قبورًا، إن توفيق يظهر للمحظوظين؛ مَن يرضى عنهم فقط من بين المائة، يرونه وكراماته، ومع كل مرة يظهر فيها الرجل، يحدث أمر جلَل، لم يرَه أحد، لكن أثره كان يتحدث عنه، رجل يظهر بالأفعال وحسب؛ لذا يخشى الناس ظهورَه ويتمنونه في آنٍ.

***

لم تدرِ كم مرّ من الوقت قبل أن تفيق، لم يبدُ أنه قد مر الكثير، فقد كانت الداية لا تزال هناك، لم تكد ترى عينَي حسنية تنفتحان حتى سارعت برفع المولود إلى أعلى حيث يمكن لها أن تراه. «أخيرًا عملتيها وجبتِ بنت». قالتها الداية فيما شعرت حسنية أن أحدهم قد صفعها للتو بعنف.

كانت منهكة للغاية، ككل ولادة، لكن الفارق أن قلبها كان يقفز فرحًا، في كل مرة ترى مولودها الذَّكَر، هذه المرة

لم تصدق لحظة أنها قد تكون حاملا في فتاة، برغم كل التكهنات، لم تدرِ هل تفرح بها أم تتحفظ على مشاعرها لتنتظر ردة فعل عوض.

عوض يكره إنجاب الإناث. «لكنه لم يُرزق بواحدة من قبل، ثُرى هل سيكرهها أم سيحبها؟». لم تكن إجابة السؤال سهلة بالنسبة لها؛ فهي تَذكُر جيدًا الحديث الأخير في هذا الشأن.

«مرات سيد أبو كارم بتقول إني حامل في بنت». يومها تغيرت ملامح عوض في ثانية:

«إشمعنى يعني؟». كانت قد بدأت الحديث من الأصل كي تصل إلى تلك النقطة بالذات.

«بتقول إني احلوّيت أوي.. أصل البنات بتحلّي».

نظر لها باشمئزاز شديد قائلا: «بَقالك قد إيه ماشوفتيش نفسك في المراية يا حُسنية؟ حلاوة إيه دي! وِليّة تعبانة في عينيها».

«بس البنات حلوة يا عوض ورزقهم واسع».

«البنات في الدار مصيبة يا حسنية، إياكِ تعمليها.. تبقَى وَقْعتك سودة زي عِيشتك ما هتبقى بالظبط». ثم استطرد: «يوم ما يجيني بنت هادفِنها تحت رجلي هنا هو». قالها مُدبدبًا بقدمه فوق بقعة من ساحة الدار.

لم تكن ملامحه في هذا اليوم تشي بأنه يمزح، لكن الأمر أصبح الآن واقعًا. «ما الذي يمكن أن يفعله؟». كان السؤال

يعتصر معدتها لفرط قسوته.

انتزعتها الداية من حيرتها: «العَيّلة جعانة رَضّعيها»، كانت المولودة كطفل في عمر الشهرين؛ سمينة جدًا، وتمصّ إبهامها بنهَم. جاهدت حسنية كي تجلس بطريقة تسمح لها بإرضاع الصغيرة، لكن الآلام كانت تفتك برحمها، شعرت أن الأمر لا يستحق العناء.

«ليتها تموت». ترددت الأمنية في أعماقها، لكنها في تلك اللحظة بالذات لم تكن ستحتمل أن تسمع صوتها، هكذا حشرت حلمتها في فم الصغيرة كي لا ينطلق صوتها في البيت.

«العَيّلة جعانة أوي». مصمصت الداية شفتيها شفقة على مشهد الرضيعة التي راحت تبحث بفمها عن ثدي أمها، بعدما أفلتته عدة مرات، استغرقها الأمر عدة دقائق، تعثر على الحلمة البُنية.. تفلتها، فتزمجر، ثم تعود لتبحث عنها من جديد، وهكذا، حتى نجحت في التقامها أخيرًا بمهارة عجيبة، كأنها معتادة على الرضاعة منذ الأزل.

فجأة تعالَى صراخ هستيري في الخارج، ركضت الداية مُلوّثة اليدين، تاركة باب الغرفة مفتوحًا، فيما ركض أطفال المنزل نحو مصدر الصراخ، بينما تجمدت الدماء في عروق حسنية التي علمت أن ما كانت تنتظره وقع.. أحدهم سيختفي من القرية الآن!

***

١٠٠ شخص، بالتمام والكمال كان عدد سكان القرية التي كلما وُلِد لها طفل قدّمت مقابله مختارًا، لم يكن أحد يعلم إلامَ ينتهي أمر المختارين! لكن الجميع يعلمون أن كلمة السر في الرقم ١٠٠. عالَمُهم بالكامل يتوقف عند ذلك الرقم، يقدمون ذويهم لأجله، ويرتضون قانونه، لا يجرؤ زائر على الاقتراب، من قريتهم، ولا يُصرح لأحد منهم أن يخرج، لأنه لن يُسمح له بأن يعود؛ لذا عرفتهم القرى المجاورة بقرية المائة.

في الليل لم يكن أحد يجرؤ على التوسُّد، يتهرب الرجال وتتمنع النساء، لا أحد يرغب في مزيد من الضحايا، فربما حلّت النكبة على البيت نفسه صاحب المولود الجديد، فيصير المختار من عائلة المولود.

معظم أطفال القرية، ولدوا في الغالب لاثنين ظنًّا أنهما لن يكونا سببًا في مختار جديد، إيمان قوي بأن الحق في الحياة، أهم من تلك اللحظات العابرة، تملّك الجميع، لكن عند نقطة بعينها، كانت القوة على الاحتمال تصير ضعفًا وخوفًا.

يعلم الجميع أن تلك الصلابة والزهد المُعلَن، مجرد حيلة فاشلة، ومظهر هَشّ؛ لذا لم يكن أحد يبدو على ما يرام، مهما حاول إظهار القوة بكل ما أوتي من ضعف، هكذا وُلِدَ أغلب أبناء القرية من ضعف.

تظل تلك اللحظة التي سمح فيها طرف لآخر أن يجتاحه، ويسطو على مخاوفه إلى لحظة ملعونة، يكتمل قُبحها حين تنطلق الصرخة في أحد البيوت، فيستحيل العاشقون،

قاتلين.

كان الجميع يعرف بعضهم بعضًا جيدًا؛ لذا لم تكن التهاني تحيط بـ«الوالدة» وزوجها بقدر نظرات التأنيب، كلما وُلدَ طفل انقطعت علاقة عائلته بعائلة المختار.

حين يأتي الدور، يدق الباب، ويظهر رسول العمدة، ليخبرهم باسم الشخص المختار، الكل يعلم المختار مقدمًا، يعرفونه جيدًا، والمختار نفسه يعرف في الغالب أنه التالي، المختار عجوز، أو مريض، أو ذكر نجيب، هذه ليست قاعدة معلنة، لكن الجميع يعرف.

***

عادت الداية مرة أخرى، وحين دلفت إلى الغرفة، حاولت ألا تُبدي أي تعبيرات، لكن فضول حسنية كان شديدًا، لم تنتظر حتى تبدأ السيدة في الحكي، فسألتها بلهفة: مَن المختار؟

«جارتك وصاحبتك».

لم تفهم حسنية مَن تحديدًا، لكن الداية عاجلتها: «مرات سيد أبو المكارم».

وقع الخبر في صدر حسنية كئيبًا جدًا، كانت تلك هي صديقتها المقربة، وكانت تعلم أنها تشكو من متاعب عدة، لكنها لم تتصور أن تكون هي المختارة، فثمة آخرون يستحقون أن يصيروا مختارين بخلاف صاحبتها. شعرت برغبة في البكاء، لكنها لم تبكِ، نظرت للداية وقالت: «كانت

هتغيب على أي حال».

لم تجادلها الداية، حتى لا ينتهي الأمر بطردها. أمسكت لسانها، وحاولت أن تبدو ودودة رغمًا عنها: «هو سي عوض هييجي إمتى؟». كان هذا هو مبعث خوف حسنية الأكبر الآن؛ عوض. ثُرى هل سينفذ تهديده ويدفن الصغيرة حقًّا تحت قدميه؟ لكن العمدة لن يقبل بأمر مماثل، لا أحد يرتكب جرائم هنا.. لكن عوض لا يمزح أيضًا!

مر الوقت ثقيلًا، على كلّ من الداية وحسنية، كانت الأخيرة تنظر من حين لآخر للصغيرة القابعة فوق صدرها، كجُرم اقترفته، وصار عليها الآن، أن تحمله لبقية عمرها، بدت كحجر ثقيل يجثم فوق قلبها، تباطأت أنفاسها، في انتظار قدوم عوض.

خطر لها أن مرات سيد أبو المكارم لم تكن تستحق أن تكون المختارة، وإن كان، فليس لأجل تلك المولودة الجائعة، لو لم ترحل، لكانت هي الآن مَن تقف لإعداد المُغات، وإطعام حسنية وأبنائها.

«الداية اللعينة لم تتحرك من موضعها حتى لتمنحني كوب ماء، مَن سيعتني بي الآن؟». خطرت الفكرة لحسنية فرمقت الداية بضجر وأخبرتها: «لو تعبتي قومي وهبعتلك الحلاوة على البيت مع عيل من العيال». لكن الداية لم تكن تأمنها هي أو زوجها؛ فقد حدث ذلك في الولادة السابقة، والتي لم تحصل على «حلاوتها» حتى الآن.

كانت حسنية تفكر في هذه اللحظة بصينية الدجاج سيئة الرائحة التي أعدتها في الصباح، يفتك الجوع بمعدتها الآن؛ لذا نظرت شزرًا للداية التي التصقت بالكرسي وألقت لحسنية بعرض مُتردد: «أجيبلك حاجة تاكليها»، ولكن قبل أن ترد الأخيرة عاجلتها الداية: «ولّا أقولك استني شوية مش دلوقتي عشان بطنك لسة مااشتغلتش».

في الخارج، تعالَى صوت أبناء حسنية، وهم يُبلغون عوض بالخبر، فغاب عن الدخول، لم تجرؤ الداية على الخروج، حتى لا تصطدم به، فهي تعلم جيدًا أنه لا قِبلَ لها بعوض، ولم تجرؤ حسنية على دعوته للدخول، هكذا ظلت السيدتان ساكنتَين في مكانهما، حتى دلف هو إلى الغرفة.

كان الجو يزداد برودة، فتدثرت حسنية بالغطاء، حتى غاصت تحته، فيما نزعت الداية الصغيرة من بين يديها، وتقدمت بتردُّد نحو عوض كي يراها، لكنه أشاح بوجهه عنها، ورد يدَي الداية بحسم، لكنها أصرت: «يا راجل خد شيل ضناك». إلا أنه نظر لها نظرة دفعتها لاستعادة الصغيرة إلى حضنها دون كلمة أخرى؛ حيث لم تضمن ما يمكن أن يحدث في تلك اللحظة.

لم يرغب عوض في اختيار اسم لابنته. «سمّوها أي حاجة». قالها للداية التي راحت تُردد: «مبروك ما جالك.. تتربى في عِزك». فأجابها بتجهم شديد: «متشكرين». تلوثت ابتسامة السيدة، المصطنعة، بالعبوس الشديد على وجه الوالد، فجمعت أغراضها سريعًا لترحل ناقمة على الجميع. هذا البيت

بالذات تكرهه، لا تحصل منه على أكثر من أجرتها، ولا يدعوها أحد إلى شرب الـ«مُغات» أو إلى المكوث حتى تحضير الغداء!

لم تختر حسنية اسمًا لابنتها، ولم يفعل أحد، كانت تتمنى لو يختار لها والدها الجالس إلى جوارها اسمًا، لكنها باتت توقن الآن أن الصغيرة التي يشبه بكاؤها مواء القطط الغاضبة، غير مرغوب فيها منهما معًا. تمنّت كثيرًا لو كانت صغيرتها هي المختارة وليس جارتهم الخدومة.

كان الشوق يحرق قلب حسنية في تلك اللحظة. لم يهنئها عوض بالمولود ككل مرة. لم يربت على رأسها أو يخبرها بأنها أحسنت الصنع، أصابها هذا بالضيق الذي حمّلت مسئوليته كاملة للصغيرة القابعة إلى جوارها، فيما التمست العذر له: «عنده حق برضو».

سألته بتردُّد: «ما جوعتش يا سي عوض».

انتظرت أن تحصل منه على أي شيء، ولو كلمة. تمنت لو سألها إن كانت قد أكلت أو لا، لكنه لم يمنحها سوى ظهره بعدما نفثَ بعنف في لمبة الجاز لتغرق الغرفة فيما يشبه ظلام القبور.

***

قبل مجيء توفيق إلى القرية، كانت المياه ترتفع شيئًا فشيئًا. وقتها، كان الخوف في قلوب الناس، يلازم دقاتها، ينامون الليل وهم يخشون الغرق ويعيشون النهار وهم موقنون أن مصيبة ما سوف تحيق بهم، بين لحظة وأخرى، حتى إن بعضهم استأذن العمدة في إيجاد طريقة للخروج من القرية، لكن أحدًا لم يسمح له بالخروج أبدًا، وما زال الجميع يذكر جملة العمدة حينها، تلك التي قالها فوق مئذنة القرية، عن أن الخروج مسموح لهؤلاء الذين يرغبون في أن يصيروا من سكان قبور القرى المجاورة، وأن هدية الخارجين، رصاصة سوف تستقر في ظهورهم حين تطأ أقدامهم أرضًا أخرى بخلاف أرض المائة.

وقتها حاول إبراهيم ابن أبو جبيل، الهرب، إلا أن الأخبار وصلت الجميع عن أن الرجل قد حظي برصاصة من رجال العمدة في ظهره بالفعل، وأنه قد وصل أرض النخيل المجاورة قتيلًا، فدفنه أهلها تحت واحدة من نخيلها، إكرامًا للرجل الذي لم يستطع الحياة، ولم يُرد الموت.

أيقن المائة الذين صاروا ٩٩ أنهم سيموتون بكل الطرق، عددهم سوف يُهلكهم من ناحية، والنيل سيطبق عليهم من ناحية أخرى، لكن رجلًا جاء من بلاد بعيدة؛ يُقال إنها من وراء البحار، اختار الربوة المطلة على المياه وأقام فوقها بيته، وتقم المائة بمباركة العمدة.

لم يصدق أحد جنون الرجل الغريب، هذا الذي جاء ليقيم بيته في منطقة منذورة للغرق، لكنه وما إن أتم بناء البيت،

اختفى بداخله، وتغير كل شيء. انخفض منسوب المياه، وظهرت الأراضي المغمورة، وعاد كل شيء لأصله، حتى الفيضان، استثنى قرية المائة، في السنوات اللاحقة، حين لم تكن تغرق، أو تعطش.

لِبيت توفيق ثلاثة أبواب؛ باب من جهة الشرق، وباب من جهة الغرب، يقود إلى النيل مباشرة، وثالث سِري، لم يعثر عليه أحد، ولم يُعرف له طريق. تحجب البيت أسواره العالية عن الناظرين.

مر النهار ثقيلًا، وجاء المساء بينما عيون الجميع تتجه نحو البيت فوق الربوة العالية، صعدت مرات سيد أبو المكارم إلى هناك في الليلة الماضية، أراد الجميع تجاهل ما جرى، بالاستعداد لجلسة السمر التي استضافها إسماعيل في منزله هذه الليلة، لكن أحدًا لم يستطع أن يصرف عن ذهنه مشهد «النور» الصادر عن البيت، المُظلم. يضيء فجأة حين يصعد المختار إلى هناك، وتظل مشاعل البيت قائمة، حتى مطلع الفجر.

غاب سيد أبو المكارم عن الجلسة هذه المرة، لم يتجرأ أحد على زيارته، فالرجل، ككل عائلات المختارين، لا يدري على وجه التحديد، ماذا حدث لزوجته، وكذلك لا أحد من المتجمعين وسط قرقرة «الشيشة»، أو هؤلاء الغائبين عن الجلسة، يعلم، الأكيد أنها غابت للأبد، ولن تعود، لن تشكو مرة أخرى من متاعبها، ولن تزعج أحدًا بكليتها التي تُعذبها، أو جسدها الذي صار ثقيلا جدًا. ربما لهذا اعتاد أهل القرية،

ألا يقوموا بتعزية فاقد في فقيده، يتجاهل الجميع الأمر، ويحاول الفاقدون أن يتجاهلوا ما جرى، حتى ينجحوا، ليعود كل شيء كما كان، من جديد، كأن شيئًا لم يكن.

«تفتكروا بياكل ويشرب زينا كده.. يا ترى شكله بقى عامل إزاي؟»، تساءل عوض ابن أبو عزب، كأنما يسأل عن الأمر للمرة الأولى. كان عوض، الأربعيني، الذي يعمل شيخ حصة في القرية، قد رُزق بطفلة صغيرة أخيرًا عقب سلسلة طويلة من الذكور. كان يفتخر طوال الوقت بأن صُلبه لا يأتي إلا بالذكور؛ حتى جاءت حسنية بالبنت. واساهُ الأصدقاء الذين كانوا يعرفون عنه حُبه الشديد للذكور، لكنه أخبر الجميع أنه ليس مُستاء، وأن الأمر يشبه القضاء والقدر، مؤكدًا أنه راضٍ عن ذكوره الثمانية، وأن تلك الأخيرة ليست محسوبة على أي حال.

حين طرح عوض سؤاله حول توفيق، نظر له إسماعيل بلؤم وقال له: «بكرة تطلع وتشوفه بنفسك يا عوض».

لكن عوض رد بغضب شديد: «إيه الكلام اللي إنت بتقوله ده يا إسماعيل؟ عيب يا راجل».

كان إسماعيل غاضبا بشكل ما من عوض؛ فـفِعلته، التي لا تُعجبه ثمرتها، كانت سببًا في مختار جديد؛ مرات سيد أبو المكارم، السيدة الطيبة التي يحبها أهل القرية جميعا؛ لهذا خرجت مزحته قاسية، ومقصودة في الوقت نفسه.

كان إسماعيل خمسينيا يبدو العجز على ملامحه بصورة

تفوق عمره، وهو من مساعدي وكيل المديرية، يعلم الجميع أنه عين الوكيل في القرية، وذراعه اليمنى في المهام الموكلة إليه بالناحية.

أدرك عوض أن إسماعيل غاضب منه حقا، وأنه بصورة أو بأخرى ليس مرحبًا به، خاصة تلك الليلة بالذات، مع ذلك تظاهر بالغضب، وأنه على وشك ترك الجلسة، لكن إسماعيل الذي كان يعلم أنه لن يفعل، جذبه من ذراعه بميوعة، وقال: «ما تزعلش يا عوض.. كلنا طالعين، مين عارف! يمكن نطلع جماعة زي ما إحنا قاعدين كده جماعة».

لم يفهم عوض ما يعنيه إسماعيل حقا، لكنه لم يحاول مغادرة المكان من جديد لأنه يعلم أنه لا أحد كان سيتمسك به هذه المرة.

نظر له إسماعيل، وقال كأنما يجيب للمرة الأولى: «أكيد زي ما هو، اللي زي دول فيهم بركة غريبة لا بيكبروا ولا بيمرضوا، هتلاقيه بيزرع له شوية خضار وفاكهة عايش عليهم، وذمتم، لا بياكل لحمة ولا بيربي فراخ».

هتف عوض: «راجل فقري».

لكن الجميع فجأة صمتوا ورمقوه بنظرات نارية، فلا أحد من أهل القرية يجرؤ على مس توفيق بالسيئ من القول.

حاول عوض أن يتحاشى النظرات، هكذا تجاهلهم وواصل حديثه مضيقًا عينيه، وبنبرة بريئة هتف: «وإنت عرفت منين؟».

فأجابه إسماعيل وقد تلونت نبرة صوته بالغيظ: «بالعقل كده، راجل لا بيبيع ولا بيشتري ولا عمره ربّى أي بهايم، يبقى هيأكّلهم منين يا عوض؟».

رد عوض وهو يلوك قضمة اختطفها من كوز ذرة قديم، كان مُلقى في أحد الأركان، بينما صوت نهيق حمار، يتعالى في الخلفية: «دا أكيد خلصان، لما بافكر فيه ما باتخيّلهوش.. هتلاقيه بقى شبه عزرائيل».

هنا تدخل جابر، في الحديث، وكان جده أحد الأعيان، توفي تاركًا لأحفاده مساحات من الأراضي، كان نصيب جابر منها ١٠ أفدنة داخل القرية. «إزاي بقى يا عوض، ده راجل من أهل الله، نجّدنا من الغرق، ومفيش نفر شافه إلا واتنصف.. بيجيلي في المنام دايمًا، كل مرة بنفس الشكل، لابس توب أبيض وشّه منوّر، وعِمته خضرا، وكّفه شبه اللبن الحليب».

تساءل رجل من الحاضرين: «وهوّ في حد شافه أصلا؟».

فأجاب إسماعيل، بعد أن اعتدل في جلسته واتخذ صوته نبرة جادة للغاية «أنا».

هنا اتسعت الأحداق، وصمت الجميع لوهلة ليهتف جابر: «مستحيل، محدش شاف طرف توبه من يوم ما جه البلد بنى البيت وحزّمه بالسور العالي، وحصل اللي حصل، دخله وماطلعش، محدش شافه من ساعتها».

لكن إسماعيل ابتلع ريقه ونظر حوله كأنما سيخبر سرًا، ثم

انخفضت نبرة صوته بشدة قبل أن يبدأ الحكي: «وأنا عيل صغير مرة سرحت في الغيطان، ونمت مكاني صحيت لقيت الدنيا ليل، ماكنتش شايف كف إيدي، في ليلة كحل، قعدت أعيط، وبعدين قمت أجري زوحت مَكفي في قناة واتعكّيت طين ومابقتش عارف أقوم، يومها حسيت إني خلاص هموت، فجأة ظهر لي راجل وشه زي البدر وفي إيده مصباح، خد بإيدي، ومشي قدامي سكة سالكة لا فيها طين ولا طوب، زي ما تكون مفروشة ورد، لحد لما ظهر بيتنا من بعيد، جريت وأنا بابكي ودخلت، وحكيت لأبوي وأمي، بس لما طلعوا كان خلاص راح».

رد جابر بفضول: «شكله كان عامل إزاي يا اسماعيل؟».

«لونه خمري، لا طويل ولا قصير، وعينيه واسعة، وسنانه لولي أبيض، مناخيره وودانه طوال وشعره بُني، لا سمين ولا ضعيف».

هتف جابر مؤمّنًا: «يبقى إنت كده شوفته بصحيح، يا إسماعيل، أنا كمان شوفته مرة».

سرث همهمات، لكن جابر استكمل حديثه بحسم، كأنما يعترف بمعلومة ثُقل كاهله: «أيوة شوفته، كنت قاعد جمب أرض، ظهر فجأة وسألني عن مكان القِبلة، شاورت له، إداني ثمرة فاكهة غريبة، طعمها حاضرني لحد الآن، لا يمكن أنسى طعمها أبدًا.. كأنها من الجنة».

رد عوض وقد ضيّق عينيه: «تلاقيك كنت بتحلم يا جابر..

طيب بذمتك شكله كان عامل إزاي؟».

فردّ: «تمام زي ما وصفه إسماعيل.. وأزيد عَ الكلام نور الوجه وحُسن الطلعة، كان له نظرة، كأنها بتشوف القلب مش الوش، لا يمكن تغيب عن بالي أبدًا.. من يومها باشوفه في الأحلام لما الدنيا تضيق عليا».

لكن إسماعيل رد بغيظ: «يا بختك يا جابر، الواحد نِفسه يا ولاد رايحة لفاكهة زي اللي كلها جابر».

ضحك الجمع وعلق جابر: «يعني من كلامي كله ما خدتش بالك غير من الأكل! أهو أنت كدة على طول يا إسماعيل، هَمّك على بطنك».

فضحك بدوره مشيرًا إلى كرشه الصغيرة متسائلا: «هو في أهم منه؟».

فأجاب عوض دون تفكير: «طبعًا في».

ثم رمق إسماعيل بتَشفٍّ وقال: «ولّا باينها راحت عليك يا شمعة، مافاضلش منك غير كرشك».

ابتلع إسماعيل الإساءة بهدوء ولم يرغب في مباراة عوض أو الاستغراق معه في مزيد من الحديث. أسرّها في نفسه، وقدّر أن شخصًا مثله، لن يفهم حرص إسماعيل، وبقية الجالسين، على عدم التضحية بمختارين جدد، إن كان بالإمكان، منع قدوم مواليد جدد؛ لذا أعلن أنها قاربت على العاشرة وعلى الجميع أن يلحق بما بقي من الليل لينامه قبل

الفجر.

أسفل النافذة الصغيرة المطلة على الزراعة، كان داود يقف مُنصتًا للحديث الدائر في الداخل، كان بدوره شغوفًا ومتحمسا لمعرفة المزيد عن توفيق، كثيرا ما اقترب من محيط بيته، وكثيرا ما جال بالمنطقة الخالية المحيطة بالمنزل المغلف بالسكون والظلام، لم يسمع صوتا قط، ولم يشعر أن ثمة حياة بالداخل، لكن فضوله ظل أكبر من خوفه.

هوت على كتفه، كفّ قوية آلمته، فكتم داود فمه، بيديه، سريعًا، كي لا يتأوه بصوت مرتفع، كانت الكف لشقيقه الأكبر عمران: «لو أبوك عرف إنك سارح في البلد يا داود، هيسوّد عِيشتك. إنت ما بتتعظش؟».

«نشّفت دمي يا عمران، يصح تخوفني كدا!».

«أنا خايف عليك يا داود، أبوك مش هيسامحك، إرجع بسرعة قبل ما يعرف والبيت يتحول ميتم».

سار داود متثاقلا نحو منزله، علّه يسمع نكات الوداع، تلك التي يطلقها رجال الجلسة حين يهمون بتوديع بعضهم البعض، فيأبون أن يرحلوا، إلا وهم يقهقهون، لكن دون جدوى، حيث غطى صوت صراصير الحقل على الحديث الدائر بالخلف شيئا فشيئا حتى اختفى.

انتهت السهرة بعدما سرق الوقت الجميع، فقاموا يركضون نحو منازلهم.

«داود صعبان عليا يا ابويا». قالها عمران بينما يخلع والده جابر جلبابه.

«هيفضل محبوس، وما يخرجش إلا معاك لإمتى يا أبويا، بدأ يخرج، أنا خايف عليه».

«هو خرج النهارده؟».

«أيوة يا أبويا، كان بيتصنت على مجلسكم».

صمت جابر قليلا، وعلم أنه قد حان الوقت ليفكر في المسألة التي حدّثه العمدة بشأنها مرارًا. قُضي الأمر، وصار مُقدرًا لجابر وأبنائه أن يكونوا سببا فيما لم يرغبوا فيه قط !

***

لم يذكر أحد أبدًا الاسم الذي نالته الطفلة، ناداها الجميع: «عوض الصغير»، لفرط الشبه بينها وبين والدها؛ كحيلة العينين، كثيفة الشعر، منمقة الأنف، غليظة الشفاه. ساعد على هذا ملابس أشقائها الذكور التي راحت أمها تُلبسها إياها منذ لحظة الولادة، حتى في العيد الأول عقب ولادتها لم تحظَ بملابس جديدة، كأشقائها الذكور، كما لم تتجرأ حسنية قط على أن تطلب من عوض شراء أي شيء لها.

في الواقع كان عوض يزجرها بعنف إذا قبلت ملابس فتيات من جاراتها، فكانت ترفضها، مُتعللة بأن عوض لن يقبل ملابس «شحاتة».

«يا عوض يا صغير»؛ هكذا كان النداء، للصغيرة التي لم

تحصل على أكثر من اسم والدها مكررًا، تمامًا كما التصق بها اسم الجني «عمير»؛ حيث قال عوض إنه تلبسها لحظة الولادة، وإنه اختارها بالذات ليقترن بها، ويُحيل حياتهم جميعا إلى جحيم.

لم تكن حياتها هادئة أبدًا ولم تكُف سيرتها عن رسم علامات التعجب على وجوه أهل القرية، فـ«عوض الصغير» كانت مُبتلاة بأمر غريب للغاية.

«من يوم ولادتها وأنا عارف الفقر اللي هيحل علينا والسواد اللي هنعيشه، قولتلك بلاش بنات! مفيش فايدة، أهي النتيجة!».

«طيب والعمل؟!».

«ماأقدرش أموتها ولا طايق أخليها، دي تكفير ذنوب لينا يا بنت خضرا، جبتيها عشان تسوّد عيشتنا وتدوّقنا المُر».

«يعني هي دلوقتي عليها جِن؟».

«أمال إنتِ فاكرة صوت عياطها عامل زي القطط ليه! ولّا وقعت من على السرير إزاي! هو فيه عيلة تتحرك من عمر يومين؟!».

«أنا باخاف منها يا عوض، الله لا يسيئك ما تخوّفنيش منها أكتر من كده؟».

«تخافي ولا ماتخافيش.. ربنا يسترها علينا إحنا الجوز».

في تلك اللحظة كان بكاء الصغيرة قد استحال إلى صوت

مرعب يصدر من صدرها كأنها على شفا الموت. لم تكد حسنية تسمعها حتى فقدت السيطرة على أعصابها.

هي التي لا تحتمل تلك السيرة وتخشى أمر الجن كثيرًا. أظهرت لها عوض عمير؛ ذلك الشرير المؤذي كما أخبرها عوض.

لم تكن حسنية تطيق عوض الصغيرة، أما الآن فقد صار عليها أن تتعامل مع الصغيرة والجن المنتقم بصحبتها.

صراخ متواصل ليومين دفع عوض لحملها إلى حلاق القرية، الذي أخبرهم أنها قد كسرت قدمها، حين سقطت عن السرير، هكذا قام بتجبير الكسر وتضميد الجراح متكفلا بقص حكايتها على زبائنه جميعًا، لكن أمها لم تنم. كانت مشاعر شتى تتنازعها، قالت بصوت مرتفع: «إحنا كنا ناقصينها دي كمان! سوّدت عيشتنا وضلّمت دارنا، يا رب خدها مش عاوزاها كفاية جرسة». كأنما تنفض تهمة عن نفسها، لكن قلبها كان يحمل غصة تجاه نفسها وصغيرتها.

«إبقي خلي بالك».

قالها عوض لحسنية.

فسارعت للتأكيد أنها تعتني بها جيدًا، لكن عوض أخبرها بنبرة ذات معنى، مُشددًا على الحروف:

«خلي بالك من نفسك».

منذ قال لها ذلك، كفّت حسنية عن وضع عوض الصغيرة إلى

جوارها ليلا، خاصة بعدما أضاف يومها: «مين عارف تعمل فيكِ إيه ولّا يعمل فيكِ إيه.. محدش عارف إيه اللي فيها، لو هتقبلي بده فأنا مش هاقبل ومش هانام جنبك تاني أبدًا».

كانت خائفة منها جدًا، ترضعها على مضض، وتتركها مكانها، في فراشها المُبلل على الأرض، أما الصغيرة فكانت تصرخ طوال الوقت بطريقة تحطم أعصاب حسنية، التي كانت تقضي الليل بين فراشها في غرفتها وبين فراش ابنتها حيث تُرضعها مرتين أو ثلاثًا.

أكد لهم حلاق القرية أن عمير هو السبب، وأنه يتلبس الأطفال الذين لا يعجبون آباءهم، يتبناهم عمير، ويصيرون أبناءه هو، لكنها مسألة ـ بحسب الحلاق ـ تستغرق وقتا طويلا، ورعبًا شديدًا، للطفل وأهله. كانت حسنية تعلم أن عوض لن يحب تلك الصغيرة أبدًا، كما أنها لم تشعر تجاهها بمشاعر تُذكر منذ ولادتها؛ لذا استسلمت لعمير، فليأخذها، وليُخفِها إن أراد.

لم يكن يُهدّئ من روعها سوى عوض، حين تتدثر بصحبته فوق سريرهما النحاسي فيخبرها بأريحية: «سيبك منها دي عيلة زنانة، نامي عشان تعرفي تفوقي ليها الصبح».

***

كانت رائحة الحقل الرطب تُعبئ الجو. أمطرت السماء بغزارة لم يشهدها أهل القرية منذ سنوات طويلة، هكذا تحولت بيوت القرية إلى خلايا نحل تطارد ثقوب الأسقف

المعرشة التي راحت تقذفهم بزخات مياه غزيرة على دفعات متسارعة، مرت ١٠ أيام، عجز فيها الجار عن زيارة جاره، لقوة المطر.

في أحد الأركان تكوّم داود، متجاهلا حركة الأرجل السريعة حوله، والأثر المزعج للملابس المبللة على جلده، وركز تفكيره بالكامل في أمه.

في ذلك الموقف كانت تدثره جيدًا في ركن بعينه ولا ترضى لأحد من أبنائها بنزح الماء، أغمض عينيه بعمق وراح يتذكر مشهد وجهها حين كانت تزجره بحسم كي يبتعد عن الماء. كان جسده ينتفض في هذه اللحظة حيث طالته إحدى دفقات المياه القادمة من السقف، فاستسلم لها ولم يحرك ساكنًا.

ظل منزل جابر حديث أهل القرية لسنوات، كانت النكبات المتتالية لافتة جدًا، الرجل الذي كان له من الأبناء خمسة، بين الكبيرين عمران وكارم والصغير داود، قدّم توأميه، لرسول العمدة بيده. ما إن أتما العاشرة حتى صارا مختارين، الطفلين الأكثر نجابة وذكاء بين أبنائه ذهبا إلى الأبد، ذلك الذكاء الشديد، التحدث المبكر والصحة الجيدة، العمليات الحسابية التي كانا يقومان بإجرائها كالماء بحلول عامهما الخامس جعلته يعرف أنهما لن يبقيا، لا يعيش لتلك القرية أطفال نجباء، ومع ذلك ظل في نفسه لسنوات طويلة ينكر الخطر حتى وقع.

كانت زوجة جابر تحوله عن هذا كله وتحذره: «ستقتلنا»، لكنه لم يستمع إليها، حيث اعتبر نفسه مفضلا واستثنائيا من بين أبناء القرية، وبعيدا كل البعد، وعائلته، عن المختارين، حتى إنه كان يُمني نفسه، أنه، وأبناءه من بعده، ربما استعادوا العُمدية من جديد بعدما فقدها نسلهم بمجيء عثمان الكبير.

حين يدق الرسول الباب، لا أحد يمكنه أن يقول «لا»، حدث هذا مرة واحدة فقط، حين قال أبو يوسف «لا»، ورفض تسليم وحيده، وكانت من ورائه زوجته، يقولون إن الرسول يومها، عاقبه بضم الزوجة مع الابن، وحين رفض الرجل، صار الثلاثة مختارين، وانقطع دابرهم من القرية إلى الأبد.

أمام كل «لا» مختار جديد من نفس البيت، حتى لو استلزم الرفض، اختيار عائلة كاملة من الجد للحفيد، مقابل كل مختار مولود، فإن لم يكن هناك بديل للمختار، استقدم العمدة واحدًا من تلك القائمة الطويلة لديه، من الراغبين في العيش في جنة قرية المائة، حيث كان العمدة يؤكد باستمرار أن السر في سعادة الجميع، واستقرار القرية هو قانونها الصارم؛ قانون المائة، لا ينقصون ولا يزيدون.

اختفت عائلة أبو يوسف، واستقدم العمدة زوجة جديدة له وقتها، واثنين من الحرس؛ لذا كان جابر يعلم جيدًا، أن «لا» ستكلفه بقية أبنائه، ما لم تكلفه نفسه.

لم يكن أكثر قسوة من لحظة تقديم الصغيرين سوى تلك

النظرة في عينَي أمهما. لم تحتمل المرأة ألمَ الفَقْد، هكذا غابت تدريجيا في عالم لم يكن فيه سوى طفليها الغائبين، منذ تم اختيارهما لم تعد ترى جابر، ولا أحدًا من الباقين.

امتنعت عن الطعام والشراب حتى نحلت وذابت، فعلم الجميع أنها ستكون المختارة التالية.. وقد كان.

دق الباب للمرة الثانية من رُسل العمدة، هذه المرة لم يقدم جابر المطلوب بيديه، كان يحاول إخفاءها وراءه، حتى إنه فكر لوهلة أن يخبئها ويخبرهم أنها ماتت.. في الواقع كانت المسألة مجرد وقت، لكن قوة خفية دبت في جسدها فجأة، ولم تدغ مجالا لجابر كي يفكر أو يفعل أي شيء، هكذا سلمت نفسها بنفسها إلى رسل العمدة ورحلت دون أن تنظر وراءها حتى.

«ليه؟»، كان السؤال يجري على لسان جابر فيعاجله ضميره بتأنيب شديد، كيف له أن يطرح سؤالا مماثلًا، لا أحد يسأل أسئلة مماثلة، لكنه لم يستطع منع نفسه من التفكير بهم، كان يتساءل عن حالهم هناك حيث لا يمكنه لمسهم أو محادثتهم مرة أخرى: ملمس طفليه في لحظة الولادة، قُبلاتهما ومشاكساتهما. كان يحب زوجته حقًّا، لم يستطع صرف عقله عن التفكير في أمور لا يدري هل يحل له التفكير فيها أو لا. «ثُرى هل يشعرون بالأنس أم الوحشة؟ يقولون إن المختارين يشعرون، لكن إن كان الأمر كذلك فلماذا يرحلون من الأصل، كان عقله يعمل دون توقف: «كيف يمكننا تسليم فلذات أكبادنا، وزوجاتنا بأيدينا إلى حيث لن نراهم أبدًا مرة

أخرى؟ نعطيهم ظهورنا ونغلق الباب، هكذا ببساطة.. كيف؟!»، كان الشتاء الأول عقب فَقْد ثلاثته الأصعب على الإطلاق لم يستطع جابر لحظة أن يصرف عقله عن فكرة واحدة أقضّت مضجعه كلما تدثر من شدة البرد: «أمّال همّ عاملين إيه دلوقتي؟!».

الفكرة الوحيدة التي كانت تُريح قلبه أن ثلاثتهم معًا، هكذا كان ينهي تفكيره في كل مرة شاعرًا بالعزاء: «ما أنا كمان هاروحلهم إن ماكانش بكرة يبقى بعده.. كلنا مختارين».

***

لم يكن يمر أسبوع دون أن تتجدد الجروح بجسد عوض الصغير، كانت لا تزال تبول على نفسها حتى بعد أن أتمت عامها الرابع، لم تتوقف حسنية يومًا عن إحراقها تارة بالشمع الساخن، وتارة أخرى بالملاعق الملتهبة كي تتوقف عن تلك العادة، لكنها عجزت فكفت عن التعامل على أنها موجودة: «روحي العبي في الطل ولما تجوعي تعالي». هكذا ومنذ الصباح الباكر كانت تختفي، وتخفف عن صدر أمها حِملها الثقيل.

في الواقع كانت حسنية تتحاشها، لهذا ترسلها أكثر الوقت إلى أبعد موضع ممكن، ولا تسأل إن كانت عادت أو لا. قذرة الرائحة إثر تبولها المتواصل، رثة الملابس، كانت تتسلى بنتف شعرها وجرح نفسها، فكان الأطفال جميعا يتجنبونها، خوفا من الجن القابع داخل «عوض الصغير» حيث يؤكد الكبار

ويؤمّن الصغار أن «اللي عليها تقيل وشديد».

لا تزال القرية تذكر حين امتنعت؛ عوض الصغير، عن الرضاعة من أمها، وتبدلت حالها فجأة، وصارت مريضة جدًا، ذلك اليوم حين فشلت كل الحلول لمداواتها مما أصابها، وصارت قريبة من الموت، نصحت امرأةٌ عجوز بالقرية، أمّها، أن تتركها عند باب البيت، وحدها، وتغلق الباب، فإن أكلها الذئب، ارتاحت، وإن لم يأكلها، فهي طويلة العمر، مديدة الرزق بكل تأكيد، مبروكة لن يمسها سوء مهما جرى.

لم تتردد حسنية ولا كذّب عوض خبرًا، هكذا تُركت عوض عند باب المنزل، في موضع واضح لأي حيوان مفترس، أو ثعبان سارح، فريسة سهلة ومكشوفة لمَن يريد، بكت الصغيرة طويلا، لكنها فجأة توقفت عن البكاء، وبينما كان عوض وحسنية يغُطان في نوم عميق، في انتظار نهار سعيد، لن تعود فيه نكبتهم الصغيرة موجودة، كانت بيوت القرية جميعا عاجزة عن النوم. ماذا لو بقيت عوض على قيد الحياة؟!

انقضت تلك الليلة ببطء، ونام الوالدان كما لم يناما من قبل، لم يكن يزعج حسنية سوى المشهد الذي ظنت أنه ينتظرها؛ فهي لا تحب مشهد الدماء؛ لذا فوضت عوض بالخروج، كي يواريها الثرى، بينما اتجهت هي إلى المطبخ كي تباشر مهامها بشكل عادي!

لا أحد ينسى، هذا اليوم، حين خرج عوض من داره إلى حيث ترقد الرضيعة على الأرض، هادئة صامتة، يحيط بها

أهل القرية جميعا. لم تكن تبكي، ولم تكن تنزف، ولم يكن هناك أي شيء.

«هل توقف قلبها من كثرة البكاء؟».

تساءل عوض وهو يقترب منها، لكنه وبمجرد أن لمسها، تحركت يداها وقدماها بقوة، وانطلقت في بكاء شديد، بينما أهل القرية جميعا يُكبرون ويُحوقلون، من تلك الصغيرة التي ينتظرها عمر مديد.

لم يقترب يومها عوض من صغيرته، لم ينحنِ ليحملها، فتكفلت إحدى النساء وسارعت بها إلى الداخل كي تُرضعها أمها، لكن الأخيرة أعلنت أنه لم يعد لديها ما تعطيه لها، فتكفلت بها الجارات، كلّ ترضعها مرة، لعامين ونصف، قبل أن تفطم الصغيرة نفسها بنفسها، فيما تتسابق النساء لإرضاعها طلبًا لبركتها.

***

مرت أربع سنوات، لم يُرد جابر الزواج مرة أخرى، لكن العمدة تدخل بقوة، مؤكدًا له أن هذا لا يمكن أبدًا. كان الحزن قد أحنى ظهر جابر، لكن العمدة كان مُصرًا على تزويجه: «مش عشانك، دا عشان عيالك»، قالها غير مرة، بينما كان صدر جابر ضيقا حرجًا، من الكون كله، حتى إنه فقدَ القدرة على الرفض أو القبول أو حتى المناقشة، فانصاع لما أراده العمدة كي يتخلص من ذلك الجاثوم فوق رأسه. «البلد اتولد لها توأم غير عيالك، اعتبرهم عوض ربنا لينا، ومراتك لازم لك

واحدة غيرها تراعي بيتك، عيالك عود أخضر وأنت لا حمل طبخ ولا غسيل ولا مراعية».

كان اختيار العمدة قد وقع على سيادة؛ ابنة أحد الرجال الموثرين في بلدة مجاورة. حسَنة الطلعة، قوية الجسد، عاقر؛ سبق لها الزواج ثلاث مرات دون أن تحظى بطفل. لم يشعر جابر براحة حيال الأمر إلا حين علم أنها لن تنجب أطفالا، في تلك اللحظة لم يتردد في الاستجابة للعمدة: «أنا أصلا مش عاوز عيال تاني. اكتفيت».

كفت الأنباء السيئة عن الصدور عن منزله، لكن الخوف ظل يقبض قلبه بشأن داود، لم يكن يختلف عن شقيقَيه الراحلَين في شيء. كان نجيبا، يسعى كالطاعون كي يتعلم كل ما يمكنه، كان يدرس في المدرسة قبل أن يُقرر جابر أن يبقيه بالمنزل، ويخبر الجميع أن ابنه أصبح غريبًا. «الواد ممسوس» هكذا راحت شمعة داود الصغير تتحول من «الطفل النجيب» إلى «عبيط القرية» الذي تصدُر عنه تصرفات غير مفهومة. صارت مبررًا قويا من أجل إبقائه في المنزل «كي لا يؤذي نفسه»؛ قالها الوالد غير مرة كلما سأله أحدهم عن سبب اختفاء الصغير.

«أضيع مستقبله وأسيبه عايش ولا أساعده وأخسره؟». كانت الإجابة محسومة في كل مرة يؤنبه ضميره بشأن بقاء داود في المنزل بدلًا من المدرسة.

لم يكن الأمر سهلا بالنسبة لسيادة أو جابر، فكلاهما لم يكن

يرغب في الآخر، كما أن نفسها ضاقت حين علمت أنها حلّت مكان امرأة ظلت في هذا المنزل لـ٢٠ عامًا، كان الحزن طازجًا في كل موضع من البيت ورائحة الراحلة في كل التفاصيل حتى نَصْل السكين، وتقعيرة الملاعق ما زالت تحمل أثرًا من الأم التي حملت كل جميل ورحلت.

لم تحظَ سيادة بفرح أو زفة أو حتى زغاريد، هي أيضا لم تكن تريد، كان ترغب في الهروب من بلدتها ومن الألسنة الحادة، إلى واقع جديد لم تكن تعلم عنه أي شيء، حتى إنها رجت والدها أن يوافق على طلب العريس بأن يأتي بصحبة العمدة ليعقدا القران ويأخذها بحقيبة ملابسها دون أن يتكفل أحد من عائلتها عناء السفر بصحبتها.

في الطريق من بلدتها إلى قرية المائة كانت سيادة تعلم أنها مُقبلة على ما لن تستطيع قط الهروب منه، لا أحد يدخل تلك القرية ويبرحها أبدًا، لكن ما تركته خلفها لم يكن يغريها بالرجوع؛ حبها الأول الذي تزوجها عقب قصة حب طويلة لم يتردد في تركها حين ثبت له أنها عاقر. لم تكن زيجتاها التاليتان أفضل حالًا «على الأقل لن يسألني أحدهم عن شيء قادم في الطريق.. لا أحمل ولن أحمل شيئًا ولن يطالبني أحد بذلك؛ وهذا يؤلمني ويكفيني». قالتها في نفسها بينما غصة تطعنها كلما تذكرت أنه سيكون عليها أن تكون امرأة لرجل من جديد؛ رجل لم يصن ذكرى زوجته وتزوجها هي بتلك السرعة.

لم يطالبها جابر في تلك الليلة أو حتى الليالي التالية بشيء،

ولم تفعل هي، كما لم ترد، لم تخلُ عيناه من الحزن، حتى إنه كثيرا ما كان يُحدثها عن زوجته وابنيه، حتى رق قلبها لذلك الرجل الذي فطر الحزن قلبه، شيئا فشيئًا فهمت أن وجودها كان حتميا بحسب قانون القرية لا رغبة جابر، قبلت المقايضة في النهاية، فلم تُذكرهم يومًا أنها ابنة عائلة ثرية، لم تفتقد في حياتها سوى الإنجاب فاضطرت إلى الزواج من أرمل، ولم تتعامل كبديل أبدًا، بل كأصل جديد داخل المنزل، الذي لم تسعَ لنيل محبة أحد من أهله، بابتسامة أو كلام لين، ظلت كما اعتادت أن تكون دومًا صلبة، معتزة بنفسها، وبما تراه صوابًا.

***

لم تكن سعدية تتخيل في ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى حدود قرية المائة، أنها ستصير على رأس أهلها، كانت تتلفت حولها، وهي تسير تاركة وراءها تاريخًا ترغب أن تنساه، وينساه الجميع.

اقتربت بينما صوت زحام من الغوايش الصاج يسبق صوتها، فيما خرجت كلماتها مائعة دون قصد بفعل العلكة التي كانت تمضغها بطريقة أقرب للغيظ منها للتسلية.

اقتربت من مندوب العمدة الجالس منتفخًا، وهمست في أذنه كي يستثنيها من الطابور الطويل، لكنه زجرها وأمرها أن تأخذ دورها؛ فليس لديه «خيار وفَقُّوس».

هكذا وقفت تحت الشمس، في انتظار دورها، وراح عقلها يُصوّر لها عالمًا آخر، هناك خلف أحجار السماء، مع المائة محظوظ.

استلزم الأمر ساعة حتى جاء دورها، فانحنت تهمس. باسمها لمندوب القرية، كتبه، إلى جوار عنوانها وأخبرها أنه قد يأتيها رُسل العمدة لتقابله إن وقع عليها الاختيار ضمن مجموعة المحظوظين المرشحين للانضمام لقرية المائة، أو لا يأتون.

يطالع العمدة كشوف الراغبين بين وقت لآخر، يختار مجموعة قليلة ليقابلهم، ثم يختار عددًا محدودًا للانضمام للمائة.

ضاقت القرى بسعدية، لم يكن يحتملها رجل لفرط جمالها

وغنجها، ولا امرأة لفرط استفزازها وكثرة مكائدها، لم تدخل بيتًا إلا خربته، ولم تطأ قدمها أرضًا، إلا استحالت بورًا.. إذا حضرت سعدية غاب العقل والمنطق، ربما لهذا وبمجرد أن قابلها العمدة اتخذ قراره فورًا، إن تلك المرأة لن تكون لأحد سواه، كان ما رآه الرجل في عينَي تلك السيدة هذا اليوم، كفيلًا بألا يتردد بشأنها أبدًا.. كانت ما يريد بالضبط.

سنوات طويلة قضتها أنهار، زوجة العمدة، دون أن تُنجب، لا أحد يحصي كم سبقها من النساء، لكنها كانت تشعر بأمان عميق، مع رجل لم يبدر عنه، معها، في يومٍ، ما يُنذر بقرار كهذا.

كان يومًا مشمسا وجميلا، تُغرد فيه الطيور أكثر من المعتاد، حين دلف العمدة إلى غرفتها، وأمسك بيديها ليقبلها ثم سألها: «إنتِ عارفة أنا بحبك قد إيه.. تبسمت من أعماقها فقد كانت تظن أنها تعلم حقا».

لكنه عاجلها: «تزعلي لو اتجوزت؟».

نظرت له دون تعبير وضيقت عينيها، قبل أن يستكمل كلامه: أنا عارف إنك عاقلة وعمرك ما تُقفي ضد شرع ربنا.

لم تزد يومها أنهار؛ حيث بدت ردود العالم كلها بلا معنى.

ظلت عاجزة عن التصديق لوقت طويل، كأنه كابوس، تظن أنها سوف تستيقظ بكل تأكيد لتكتشف أنه لم يكن سوى حلم سخيف، مجرد حلم ستستيقظ من بعده بخير.. ظلت تُنكر ما سمعت، بينما العمدة ينفذ خطوات زواجه من سعدية خطوة

بعد أخرى.

حتى إنه دعا رجال القرية لعقد قرانه على سعدية كي يشهد الجميع أنه قد صار لعمدة المائة زوجة ثانية غير أنهار.

منذ دلفت سعدية إلى المنزل، مات شيء ما في صدر أنهار، شيء باختفائه، صار الطعام بلا طعم، وصارت الحياة بلا معنى، والوجود ذاته، لا جدوى منه.

أمام المرآة وقفت أنهار، تتأمل وجهها الذي صار الآن يحمل عددًا لا بأس به من آثار الزمن: «لكنني ما زلت جميلة». قالتها في عقلها، وهي تنظر إلى شفتيها، كانتا لا تزالان ممتلئتين، ولا تزال عيناها تحملان قدرًا لا بأس به من الجمال. كانت أنهار تعلم أن امرأة أخرى قد حلّت بالبيت فعلا، لكنها، لم تصادفها من وقتها.

كانت الخادمة في هذا اللحظة تقف خلفها تمامًا، تسألها عن أمر ما من الأمور الكثيرة التي لا تكف عن السؤال بشأنها، لكن أنهار لم تكن تنتبه لها.

«مالك يا ست أنهار؟».

«تعرفي إنك هتزوحي يا سكينة، صح؟».

«إزاي يعني.. هو أنا عملت حاجة غلط؟».

«هتزوحي زي ما كلنا هنروح، وأنا كمان هاروح، ومرات العمدة الجديدة وأهل البلد كلهم، محدش باقي إلا العمدة. بس إزاي عايشين يا سكينة وإحنا عارفين إننا مختارين؟».

«مش فاهمة حاجة يا ست أنهار!».

«أنا فاهمة.. وكنت عارفة إن كل ده هيحصل.. بس ماكنتش مصدقة إنه ممكن يحصل، زي اختيارنا، منتظرينه لكن مانعرفلوش ميعاد!».

«سلامتك من كل شر يا غالية يا طيبة».

«الشر ماسابش حي إلا ونغّص عِيشته يا سكينة.. الشر زي شهقة الميلاد، لازم يمزّع القلب، ويسيب عليه بصمة بلون أسود، ما يعودش من بعدها أبدا زي ما كان!».

«ماتزعليش أبدًا.. القديمة تحلّى ولو كانت وَخلة».

قالتها سكينة وهي تشعر أنها قد أسدَت سيدتها معروفًا كبيرًا، لكن الكلمة الأخيرة ظلت تتردد في ذهن أنهار:

«وحلة!».

كان هذا التعبير بالضبط هو ما تشعر به، وقع ما كانت تعلم أنه سيحدث بالضرورة، ولكنها لم تكن تعرف متى أو كيف، ولم يكن موطن صدمتها في هذا كله.

«سعدية؟ سعدية يا عمدة!».

هكذا كانت تُردد أنهار، في كل مرة يتناهى إلى سَمعها صوت سعدية، كان ما يؤلمها حقًا هو المفاجأة؛ أن تصير امرأة كسعدية بالذات شريكة لها في الدار والزوج والهواء.

كان صوت «سعدية» يشق سماء قرية المائة في كل ليلة،

كانت لها ضحكة رقيعة جدًا، يحبها العمدة كثيرًا. امرأة شبقة، كالنيران المستعرة، أو ربما أكثر، لم يكن يطفئ سعدية شيء، تلتهم ما يقترب منها، وتطلب المزيد.

لم يحفظ لأنهار كرامتها، أمام نفسها، إلا قرارها باعتزال العالم كاملًا، منذ دلفت سعدية إلى البيت التزمت أنهار غرفتها، وهو ذات التوقيت الذي حاول فيه العمدة أن يكون رجلا عادلا بين زوجتَيه فخصّص لكل منهن ثلاثة أيام، على أن يرسم اليوم السابع نفسه بنفسه، فإما سفرًا وإما راحة وخلوة، أو ربما يكون يومًا يصعد فيه مختارًا للربوة.

في المساء، صارت أنهار تنام في تمام السادسة، يومًا تلو الآخر، صار الأمر مريبًا بالنسبة للعمدة، هكذا راح يرقد إلى جوارها تارة ويدعوها فتمنحه صمتًا عميقًا تارة أخرى، أو ربما دموعًا لم تكن تستطيع إيقافها ولو مرة رغم محاولاتها لادعاء الصلابة، واللامبالاة، لكنها فوجئت أنها مع كل مرة أرادت أن تكون قوية ومتماسكة، بدَت هشة وخربة تمامًا، تسابقها الدموع فلا تستطيع أن تشرح أو تُعاتب أو حتى تشب.. كانت تُطيل الصمت والبكاء.

ظلت هكذا لأسابيع حتى ملّ العمدة تمنُّعها ورفضَها. لم تكن سعدية تكف عن طلب العمدة ولم يكن يكف عن طلبها، كما لم تكن ضحكاتها تتوقف، سواء كان معها، أو بعيدًا عنها، تضحك سعدية من كل شيء، إذا تناطح الإوز، وإذا صدر عن الدجاجة المذبوحة حركة غير متوقعة، تضحك إذا شعرت بالبرد، وتضحك إذا همس العمدة في أذنها بنكتة «قبيحة»، كانت

«سعدية» اسمًا وفعلا.

«هل كنت زوجة سيئة إلى هذا الحد؟ ما الذي كان ينقصني؟! هل كان بحاجة إلى كل تلك الفضائح؟»، لم تكن أنهار بمثل تلك الكآبة، حتى تمنع أبو يوسف، ورفض تقديم عائلته، لم يكن العقاب موجهًا لأبو يوسف وعائلته فقط، لكنه كان موجهًا لها، أيضًا، سنوات طويلة في كنف العمدة كزوجة وحيدة له، عقب زوجاته السابقات، والتي لم تزَ واحدة منهن، صارت شريكة بلا شريك، انتهت فجأة، بعدما عوض العمدة المائة بسعدية.

في غرفتها، كانت تستند برأسها إلى موضع، استقر بداخله حجاب للمحبة، حمل اسميهما معًا، وفي الغرفة المجاورة، لم تكن سعدية تتوقف عن إصدار أصوات مصطنعة، ولا تكُف عن التأوه، والصراخ، وكذا السباب، كان شعورًا عميقا بالإهانة يحيل حياتها جحيمًا، حيث لم تتوقف أبدًا عن طرح السؤال: «لماذا تلك بالذات؟ وكيف يحتمل كبير القرية إهانة تُطأطئ رأس كليهما بهذا الشكل؟».

كان هذا يقودها في أحيان كثيرة للتساؤل حول حجم صدمتها، إن كانت الزوجة الجديدة امرأة أخرى، وليست سعدية، هل كانت لتحزن بصورة أقل؟ لم تحاول سعدية يومًا تقليص صلاحيات أنهار في البيت، كانت تعلم حجمها جيدًا وتحافظ عليه، كما لم تحتك بها، أو حتى تحاول استفزازها، ربما كان هذا ما يستفزها أكثر، بدت لنفسها وللضرة الجديدة، كالماء، بلا لون ولا طعم ولا رائحة.

«ما العمل؟»، كانت الأسئلة تطاردها اليوم بطوله، لم يكن يخفف من وطء ذلك الشعور المؤذي بالضغط داخل رأسها، سوى ركوعها الطويل، وبكائها المرير أمام الله، حيث بدا لها لاحقًا أنه قد استجاب.

***

كانت حلوى النعناع مخبأة بعناية داخل دولاب «سيادة». تسلّل داود، واقترب بحذر، اهتزت يداه وهو يمدها كي يفتح الدرفة، التي ما إن تحركت حتى صدر عنها صرير عالٍ، كتم أنفاسه لفترة، معتقدا أنها، بالتأكيد، سمعته، فأذنا سيادة تسمع حتى همهمات الشتائم المبهمة، التي تصدر عن داود اعتراضًا، بل وتفسرها.

تسمّر في مكانه بعض الوقت، في انتظار دخولها عليه الآن، لكنها لم تدخل. مر الوقت ثقيلا قبل أن يزفر داود بهدوء، ويمد يديه إلى داخل الرف المنمّق بعناية، لكن رائحة النعناع القوية، لفحت وجهه بقوة، فشجّعته على إتمام الأمر سريعا، هكذا مدّ يديه وأمسك بواحدة من داخل العلبة الصفيح، التي تحتفظ داخلها سيادة بكنزها الثمين، لكنه كاد أن يعود عما يفعل، حين تذكّر وجهها، هو يكره تلك النظرة على وجه زوجة أبيه بشدة، حيث لا يفارق الاشمئزاز ملامح وجهها أو نبرة صوتها، حتى كلماتها، وعيناها، ولمسات يديها تُشعره بأنه مخطئ دائما وغير مرغوب فيه.

«لماذا لا ترضى عني أبدا؟!». قالها في نفسه بكثير من

السخط، منذ توفيت والدته وهو بحاجة إلى أم حقيقية، هو يحب سيادة جدًا وينشد رضاها طوال الوقت، لكنها لا تمنحه الرضا أبدًا.

تُعد سيادة طعامًا لذيذًا، وتغسل ملابسهم بطريقة تعيدها جديدة، سيادة تُرتب المنزل بعناية وتُسعد والده وتهتم بكل شئونهم، حتى أدقّها، فلا يفتقد جلباب زرًا، ولا يبقى صغير أو كبير في المنزل خاوي المعدة.

«سيادة تمنحنا كل شيء جميل لكنها تُشعرني بتوتر شديد، هي لا تبتسم أبدًا، ولا تدعنا نساعدها أو نسعدها، سيادة غريبة وتحتفظ بالسكاكر لمَن يُحسن التصرف، ولا أحد في عرفها يفعل أبدا، لم يذق أحد من قبل طعم سكاكر النعاع تلك، ولا حتى أبي، لا أعتقد أنه يعلم بوجودها أصلا، كيف لا تزكم أنفاسه رائحة النعناع القوية؟ كيف يعيش من دون حلوى النعناع.. ربما تلك الحلوى هي السر وراء قوة سيادة وجمالها. الآن سأعرف».

كاتمًا أنفاسه، مد يديه ليغلق «الدولاب» الذي أصدر هذه المرة صريرًا أقل، ثم تسمّر مرة أخرى في مكانه، منتظرا أن يتم ضبطه بالجرم المشهود، لكن أحدًا لم يدخل للمرة الثانية، هنا خرج ببطء، وحذر، إلى ساحة الدار، تلفت حوله، قبل أن يصل إلى الباب، ثم راح يركض كالملسوع، إلى قلب الزراعة، حيث اختفى وسط محصول الذرة.

على مسافة معقولة، توقف عن الركض، واضعًا يديه على

صدره، راح يلهث، وهو يفكر كيف صار لصًا الآن، قال في نفسه: «سيادة ستعرف بالتأكيد فهي تدرك مواقع الأشياء جيدًا وتواصل المرور في أرجاء المنزل كعسكري الدرك. ثُرى ما الذي يمكن أن تفعله بي؟!». لكن الخيال بدا أكثر رعبًا حين تصور ما يمكن أن يفعله والده إذا علم بفعلة ولده: «أبويا لو عرف إني سرقت هيقطع إيدي!».

لكن فجأة لم يبدُ أن هذا كله يعني أي شيء له. فتح قبضة يده ليكشف عن حلوى النعناع الموجودة فيها الآن، بغلافها الشفاف، وصوتها المميز، راحت تخرفش، فيما هو يبتسم ابتسامة نصر، الآن تَعادَل مع سيادة. هي تُحكم قبضتها وهو تسلل ونال ما يريد.

«فلتحترق سيادة»، قالها في نفسه وانطلق يركض إلى نقطة أبعد كأنما يبتعد عن فعلته وليس بيته، إلى تلك النقطة، حيث لا أحد يعرف الموقع الذي يُفضله سواه.

حين وصل، أسند ظهره إلى الحجر الكبير، ونظر إلى السماء، قبل أن يفض غلاف الحلوى ببطء، حتى أخرجها أخيرًا، أمسكها بيديه وراح يتحسس ملمسها الخشن، ثم تمتم بأغنية قديمة، كانت أمه تغنيها. بدا له الأمر ممتعًا، فراح يرفع صوته أكثر فأكثر، متخيلا أنه قد صار مطرب الناحية، تلك الأحجار خلفه فرقة وكل تلك الذرة من أمامه، جماهير تنصت له باهتمام، اندمج وأغمض عينيه، وحين أنهى أغنيته، هبت ريح قوية، تمايلت معها سيقان الذرة يمينًا ويسارًا، مصدرة صوتًا يشبه أصوات التصفيق الحار، فأدرك أن صوته حسن، وأن

الكون ينصت. شعر بامتنان عميق، وقرر أنه يستحق في تلك اللحظة تحلية استثنائية تليق بجمال صوته.

كانت المخاوف تُراوده بشأن أن يسمعه أحد أو ينادي عليه أحد فلا يسمع، أو تكتشف سيادة أمره أو يبحث عنه والده، لكنه نفض كل الأفكار عن رأسه مستمتعًا بتلك اللحظة من السعادة الخالصة، هو والحلوى والهواء الطلق، قبل أن تنكزه تلك اليد في ظهره، ليستدير بحركة تلقائية بينما جفّ ريقُه من الرعب.

***

على باب غرفة أنهار وقف العمدة وهو يفكر فيما ينتظره هناك خلف الباب. هل تنتظره بملابسها الفضفاضة اللائقة، أم تُراها قد تخلت عن كرامتها قليلا، لتستعيد رجُلها؟! هل تشتاق؟ بدا الأمر غريبا جدًا بالنسبة له، كان في صدره شعور لم يختبره من قبل، شعور قريب من ذلك الذي اجتاحه حين ضحّى والده بأمه قبل زمن بعيد، من دون تمهيد أو مقدمات. أخبره أنها الثمن الذي يجب أن يدفعه كي تبقى أرض المائة. بكى كثيرا، لكن أنهار زوجته، وليست أمه، ربما لأنها الوحيدة من بين نسائه التي تقارب أمه في الشبه!

إن كان قد اشتهى سواها، فلماذا قد يرغب فيها، أنهار التي تلفظه بازدراء في كل مرة يقترب! مر وقت طويل، منذ المرة الأخيرة التي مسّ فيها كلّ منهما الآخر. هو يعلم أن صبرها على البقاء إلى جواره عجز، ولكن ما الداعي لأن يصبر عليها

هو؟ وإلى أين يمكن أن ينتهي حالُها، هلك أهلها، ولم يغد لها سواه، هل تصير أنهار مختارة؟ كان هذا هو السبيل الوحيد للتخلص منها وتخليصها من عذابها المقيم.

نفض العمدة تلك الفكرة الأخيرة عن عقله فورًا، لم تكن أنهار بالنسبة له زوجة، لم يكن يشتاق حقًا لمواقعتها بقدر شوقه لذلك الحضن الطويل، العميق، الذي يغفو داخله أحيانًا. لم تكن أنهار تدعه حتى يدعها، ولم يكن أي منهما يدع الآخر إلا حين يغيب في عالم من السعادة القطنية.. لم يكن شبقًا، بقدر ما كان لقاؤهما سكنًا، مسألة لم يعرفها ولم يشعر بها مع سعدية ولو لحظة واحدة.

فتح الباب ودلف إلى هناك، كانت أنهار قد اتخذت وضعها الأثير وغفت فوق سريرها، فاقترب منها العمدة، والتصق بظهرها مريحًا ذقنه على كتفها، وبدأ يتحدث عن أنها زوجته أيضًا، وأن له حقًا بها، وأنه يرغب في الحصول على حقه، وأن تمنُّعها حرام، فضلا عن أنه يُهدد وجودها في البيت.

استدارت، واعتدلت في جلستها، كانت الدموع تتسابق من عينيها، كأنما صارت حاسة جديدة ثابتة في وجهها، ربما حاسة حزن، كانت تتحدث بثبات، وليس كشخص يبكي بالفعل، قالت في عقلها: «لم أعُد أرغب بك، ولا أرغب في البقاء هنا، ربما أصير مختارة قريبًا، أعلم ذلك، مثلي لا مكان له في قرية المائة، سواء انتهى الأمر بالموت على أعتابها، أو الاختيار، كل شيء صار منذ قدوم تلك الفتاة بلا معنى. كذا الحياة، لم تعُد تستحق جهدًا أبذله فيها حتى التنفس صار

ثقيلا».

لم تقل حرفًا في الواقع، فاستكمل حديثه: «يرضيكي تبقي ناشز؟ أنا ماأرضاهاش ليكِ، طول عمرك زوجة صالحة، حصلّك إيه بس! مفيش شيء اتغير، إنتِ لسة على ذمتي، ولسة في قلبي وعيني». قالها بينما صوت يهمس بداخله، أن موقفها يجب أن يتغير، بأي ثمن، إن كان رحيلُها مستحيلا، فعليها أن تتخلى عن ذلك الكبرياء «المصطنع» وتُطيع زوجها، أو ربما يُسعدها زمانها وتصير محل «سعدية» ويجمع في داره سعديتين.

كان الحزن قد طبع على قلبها ما يكفي، فلم تعُد تسمع. لم يكن حديثه بالنسبة له سوى همهمات، بعض الحديث لا يستحق عناء الإنصات، أو حتى الرد، هكذا أدارت ظهرها له من جديد، وهي تفكر كيف صارت تشبه الـ«جيفة»، تلك مرحلة صعبة، لم تتصور ولو للحظة أنها قد تصل إليها، لا يمكن أن يتزوجها أحد من أهل القرية إن طلقها العمدة، وهي لا تحتمل أن تصير زوجة ثانية، خاصة بعد أن انهارت صورة العمدة الوقور في عينيها، كان الوضع لا يُطاق، وهو لا يتوقف عن محاولة استمالتها، تارة بكلام ليّن، وتارة بالتهديد والوعيد.

لم ترغب أنهار في شيء، سوى أن تصير إلى حيث يصير الراحلون، حيث لا ألم ولا جديد، جيد أو سيئ، لا شيء بشأن كل شيء، لم يكن يخرجها من حالها سوى تلك العادة الغريبة لدى سعدية، حين ينام الجميع، تبدأ هي في الترتيب لفعلتها

التي لا يعرف أحد بشأنها سوى أنهار.

***

تجمّدت الدماء في عروق داود، قبل أن ينتبه إلى أن تلك اليد لم تكن لشخص كبير في العمر، كانت صغيرة، رفيعة، متسخة جدًا، أمسكها فجأة، ونظر في وجه صاحبها ليصيبه الذهول، والرعب في آنٍ.

«بسم الله الرحمن الرحيم.. إنت إنس ولا جن؟!».

ظلت عوض الصغيرة تُحملق في وجه داود، بلا تعبير يُذكر، تنقّل نظرها، بين وجهه تارة وبين الجرو الذي تحمله على ذراعها تارة، تحاول إفلات يدها من يده، كي لا يفلت حيوانها الصغير من يدها الأخرى.

«دا!».

هكذا تملّصت منه، بضيق، دون أن تكترث لأسئلته، لم يشغلها سوى ذلك المغلف الفارغ الشفاف في يده، هكذا راحت تقرب يديها المصبوغتين بآثار من حروق متعددة إلى ورقة الحلوى الفارغة أمامها، فيما سمحت للكلب الصغير بالإفلات من يدها أخيرًا، لكن الرائحة المنبعثة من ملابسها لم تكن محتملة لداود الذي هتف «إنتِ مابتستحميش؟!».

كانت عوض، تُتمتم بكلمات بسيطة، عكس الأطفال في مثل عمرها، هكذا انتزعت الورقة من يديه فلم يجرؤ على استردادها، حيث تذكّر فجأة كل الأحاديث التي تُقال عن

عوض الصغيرة، وجنّها عمير، والذئاب التي عفت عن أكلها، والثعابين التي تنصرف عن لدغها، تلك الفتاة يخشاها الجميع، وهو كذلك، عليه أن يخشاها، خاصة بعد أن وصلت إلى تلك النقطة النائية داخل الحقل، النقطة التي لا يصلها الفلاحون إلا في موسمَي بذر البذور، والحصاد، هنا هتف في نفسه برعب: «هل جاءت لأجلي خصيصًا؟».

دارت في عقله، كل السيناريوهات الممكنة بتلك اللحظة حين أدرك أنها ربما لم تصل إلى هذا المكان صدفة. هتف برعب: «جيتي هنا إزاي وليه؟».

كانت عوض تنظر له ببلاهة شديدة، لكن تحديقها العميق بوجهه دفعه لأن يسألها: «إيه؟ هتسخطيني قرد ولّا هتموتيني ماحدش يعرفلي طريق جرة!».

نظرت له نظرة طويلة، قبل أن تمنحه ظهرها، وترحل بحثًا عن الجرو الذي كان قد وصل إلى إحدى القنوات. هتف داود: «إيه.. إوعي تكوني هتاكليه».

لكنها لم تلتفت له، حيث اقتربت من الكائن الصغير، راحت تضع قطرات الماء على عينيه المغلقتين، المغلّفتين بطبقة كثيفة من الإفرازات السميكة، حتى استطاع أن يفتحهما أخيرًا، وكان أول ما نظر له الجرو المشمشي؛ وجه عوض الصغيرة، التي وضعته على الأرض، مستديرة إلا أنه لم يبرحها، حيث ذهب في إثرها، يهز ديله، ومن ورائه داود، الذي شعر بفضول نحو تلك الصغيرة ذات الرائحة الكريهة.

«يا عوض يا صغير». هتف داود، لعل الصغيرة تقف، لكنها كانت تهيم بلا وجهة واضحة، الطفلة التي كانت تصغر داود، لم تكن بالنسبة له سوى كائن صغير مُخيف، يمكن أن يقتله، مَللًا، أو إيذاءً، لكنّ أيًا من هذا أو ذاك لم يحدث؛ فهي لم تتوقف، ولم تؤذه. «إيه دا، هتمشي كدة من غير أذيّة؟!». قالها داود بجدية، فيما لم تزد عوض فسارع خلفها وقد رق قلبه، وضع يده على كتفها: «زعلتي مني؟».

لم ترد، فقط واصلت السير فشعر داود بذنب عظيم للطريقة التي عامل بها عوض الصغير؛ لذا توقف هو عن تتبُعها واستند إلى شجرة وهو يفكر: «ماذا يفعل؟».

لم يكن لداود أصحاب، منعه والده عن الجميع، ولم يكن يسمح له بالخروج مع إخوته، إلا في مواسم الحصاد، أو الحرث، كما أن إخوته، الذين يكبرونه كثيرًا، لم يكونوا يكترثون له من الأساس، قبل سنوات، وفي تلك البقعة من الأرض كان داود يتشارك اللعب، مع شقيقَيه الراحلَين، كانا الأقرب والأكثر لطفًا من بين الجميع، كما كانت أمه الوحيدة التي تتقن تفسير ما بقلب داود: «رحل الجميع وصرت لصًا!».

هتف بها في نفسه، قبل أن يجهش بالبكاء، دفن وجهه في يديه وراح يُنهنه على ما لحق به، في تلك اللحظة كانت يدا عوض تربت على ظهره، رفع وجهه، فشعر باشمئزاز من وجهها الملوث بالمُخاط وبقايا من تراب، لكنه تجاهل اشمئزازه أمام حاجته لذلك التربيت الغريب، وغير المتوقع، وبدأ في الحديث إليها: «أنا عمري ما بكيت قصاد حد يا

عوض». قالها فانخرط في بكاء أشد مرارة، لكنه قدر أن الحديث لعوض يشبه الحديث إلى النهر الجاري، تلك فتاة لا تتحدث ولا يتحدث إليها أحد، ثم لمعت الفكرة في رأسه فجأة، تلك الفتاة تشبهه كثيرا، ولكن مع اختلاف الأحوال، تلك فتاة تُجيد التربيت، وتنصت وإن كانت لا تفهم، ولا يحبها أحد أيضًا. هنا توقف عن البكاء، مسح وجهه بكمه، ثم نظر إلى عوض وضيّق عينيه بشدة، وقال: «النهارده آخر يوم ليكِ يا عوض».

***

بدأ الأمر، في تلك الليلة، حين كفّت أصوات سعدية عن الرنين، وكف العمدة عن ضحكاته الغريبة، وساد الصمت، كانت أنهار على وشك النوم، لكن صوت قفل غرفة العمدة انفتح فجأة، فانتبهت. هل هو في طريقه إليها الآن؟

تظاهرت بالنوم، ومنحت ظهرها للباب، فيما أرهفت السمع للخطوات، لكن صوت الأقدام كان لسعدية، ذلك الكعب الرفيع، لخفها اللامع، تعرفه أنهار جيدًا، تلك النقرات المزعجة، التي تملأ الدار نهارًا، بسرعة وثقة، كانت هي نفسها، لكنها كانت مُترددة، خافتة، كأنه صاحبتها تحرص على ألا تصطك بالأرض، نقرات لامرأة ترغب أن تطفو فلا يسمع صوت قدميها أحد.

لماذا لم تخلع نعليها إذًا؟

دار السؤال بخَلدها، قبل أن تُخمّن: «ربما لأنها سوف تخرج

من المنزل الآن؟».

غابت أصوات قدم سعدية، وغابت أنهار في النوم، كانت حزينة لدرجة أنها لا تهتم ولا تكترث لمعرفة ما هنالك، لكن الأمر تكرر يومًا بعد آخر، سيناريو يومي، حين ينام الجميع، تُجلجل أصوات سعدية وزوجها، ساعة أو اثنتان أو ربما ثلاث، قبل أن يتعالى شخير العمدة، ثم، وعند منتصف الليل، تظهر دقات قلب سعدية، مبتعدة عن المنزل.

مع الوقت، صارت أنهار، الراقدة على سريرها، تراهن نفسها كل يوم، على أن سعدية سوف تخرج اليوم أيضًا، وأن أحدًا لن يكتشف خروجها، مثل كل يوم.

«ربما تقابل رجلًا آخر؟». خطر السؤال لأنهار التي سارعت للرد على نفسها: «وما حاجتها لذلك؟ الأيام كلها لها، وهي لا تكف عن طلبه ولا يكف هو عن طلبها أيضًا. كيف يمكن أن تكون بحاجة إلى مزيد؟!».

بدَت الأفكار جميعًا سخيفة بالنسبة لها، قالت في نفسها: «أيا كان المكان الذي تذهب إليه، وأيا كان ما تفعله، بالتأكيد هو أمر حقير مثلها».

هكذا أغمضت عينيها وغاصت وسط أحلام عديدة، بكت فيها بشدة، حتى إنها استيقظت وهي تُنهنه، دون أن تدري كم من الوقت مرّ، لكن يبدو أن الليل لم يكن قد انتهى بعد، لم يكن لديها ما يكفي من الطاقة لأن تفتح النافذة وتتأكد من الوقت، لكن أصوات الصراصير، التي كانت لا تزال تصفّر في

الحقل، أنبأتها أن الليل لم ينقضِ بعد.

هكذا اعتدلت في نومها بحيث غاصت أكثر في سريرها، قبل أن تسمع دقات قدمَي سعدية التي يبدو أنها قد عادت أخيرًا، وكان صوت باب الدوار ينغلق ببطء شديد، كانت تلك هي المرة الأولى التي تصادف فيها أن تسمع أنهار صوت عودة سعدية من الخارج.

في الخارج ارتفع صوت مؤذن الفجر، بينما صوت غرفة العمدة، ينغلق بإحكام. هنا شعرت أنهار بأمر جديد في صدرها: تشفّ في العمدة الغائب عما يدور وراء ظهره، ارتياح لصدق حدسها بشأن تلك المرأة، أمَل في أنّ أمرًا ما سيتغير في القريب العاجل. هنا أغمضت عينيها وقد اهتدت أخيرًا لما سوف تفعله في نهار يومها الجديد، والذي بدا لها، رغم كل شيء، سعيدًا.

***

لم يستطع داود أن ينام في تلك الليلة، على الرغم من أن جريمته الصغيرة مرت بسلام، فسيادة لم تكتشف اختفاء الحلوى، كما أن أحدًا لم يلحظ غيابه، عاد قبل عودة والده وأشقائه من الحقل، لكن الرائحة النتنة لملابس عوض الصغير لم تبارح أنفه، كما لم يبرح ظهره تربيتها، ولا استطاع صرف عقله عن تلك النظرة الحزينة على وجهها.

في صباح اليوم التالي، وبينما كانت سيادة منشغلة في الطهي، انسلّ داود خارج البيت، مع «لفة» تحت إبطه، حملها

حتى وصل إلى النقطة التي رأى فيها عوض الصغير قبل يوم، لكنه لم يجدها. تكرر الأمر عدة أيام قبل أن يلمح داود ذلك الطيف الضئيل عند طرف الترعة، فسارع إلى هناك، جلس إلى جوارها، لكنها لم تُبدِ أي ردة فعل، لم تتذكره حتى.

نظر لها وقال: «إنتِ خوفتِ مني ولا إيه؟ ماجيتيش تاني ليه؟».

لكنها لم تؤد، فقط واصلت التحديق في الترعة وهي تشير لبعض الأسماك مُرددة بحماس: «دا.. دا».

كان داود، قد حسم أمره، بشأن ما سوف يفعله. تلفت حوله ليتأكد أن أحدًا لا يراهم، قبل أن يهمس في أذنها: «مش قولتلك إن اليوم اللي شوفتك فيه هيكون آخر يوم ليكِ يا عوض».

نظرت له بعدم فَهم، فبدأ في فضّ محتويات اللفة، الموجودة معه، كانت تحوي جلبابًا نظيفًا، وصديريًا، وكلسونًا، من ملابسه القديمة. وفيما ظلت النظرة نفسها على وجهها قال: «أنا وإنتِ بقينا أصحاب يا عوض، والصاحب ساحب، تعالي معايا».

جذبها نحو غيط الذرة، واختفيا معًا، وعند نقطة معينة، طلب منها أن تُبدل ملابسها، فاستبدّ بها الرعب وبدأت تبول على نفسها من جديد، لكن داود ربت على كتفها وقال: «يا ستي مش هابُص عليكِ، بس غيري هدومك دي واتسبّحي في الترعة بدل النتانة دي».

أمسكت الصغيرة الملابس بتردُّد واستدارت صوب الترعة، عند نقطة ضحلة، غير مطروقة، يعرفها داود جيدًا، حيث خلعت ملابسها بالكامل ونزلت إلى المياه إذعانًا لأوامر داود، الذي ظل يفكر، لماذا تُبقي حسنية على شعر عوض، محلوقًا طوال الوقت، حتى صار أغلب أبناء القرية يعاملونها على أنها كائن مُخنث، فلا هي ذَكَر، ولا هي أنثى؟!

انتهت عوض سريعًا من حمّامها غير المتوقع، منحها داود قطعة قماش صغيرة لتجفف المياه، قبل أن ترتدي الملابس التي جلبها لها، بمساعدته. لم تدرِ بما ترد، لكن الراحة التي شعرت بها في الملابس النظيفة كانت محببة جدًا إلى قلبها؛ ما جعل من داود مصدر ثقة وشخصًا مطاع الأوامر.

كان داود الأصغر بين إخوته؛ لذا شعر بأهمية شديدة حين لمس تلك الطاعة في عوض، تقمص روح سيادة وراح يُفند أوامره: «أول حاجة تتعمل لازم تمسكي نفسك شوية، في حاجة اسمها الخلا، ودورة الميّة، اعمليها هناك أحسن».

استغرق الأمر عدة أسابيع، حتى نجحت فيما أراده داود، حتى إن حسنية راحت تتعجب من التغيرات التي طرأت على ابنتها. تغدو نتنة وتعود نظيفة طيبة الرائحة! هكذا راحت تروي مزيدًا من الحكايات عن الجنيّ عمير، الذي يُعنى بابنتها، فيطعمها ويحمّمها ويعلمها، ويدفعها لرفض حلاقة رأسها، هكذا صارت تعترض بعنف كلما اقترب أحد والديها من شعرها حتى تعرضت للجرح مرة بعد أخرى من أثر المقاومة، فتوقفوا عن قصّه.

***

أسفل النافذة الحديدية، حيث لم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب، لكنهم يكتفون بالإنصات للأصوات من بعيد، جلست سعدية جلستها، المعتادة، بطريقتها التي تطير عقل العمدة، ثم ألقت إليه سؤالها دون مقدمات: «عمرك ما حكيت حاجة عن جدك عثمان الكبير.. احكيلي يا عمدة»، قالتها سعدية بطريقة لم يملك معها الرجل إلا أن يحكي. كان اسم عثمان الكبير، جد العمدة، مَثار فخر وزهو العمدة وأشقائه الراحلين، الذين لم يبقَ منهم سواه.

نسي أكثر سكان القرية تاريخ عثمان الكبير، فيما اكتفت الأجيال الجديدة من أبنائهم، بما لاسم «عثمان الكبير» من وَقْع يبدو جليلًا.

قال العمدة لسعدية: «جدي كان عين أعيان البلد دي، والبلاد اللي جنبها».

نسوة قلائل كُن يعرفن ما تيسر عن السيرة الحقيقة للرجل، أما الثابت من سيرته، فإنه كان يعمل فلاحًا في أرض أحد الأعيان الكبار الذين يقطنون القاهرة، كان كسائر الفلاحين في قريته، يعاني فقرًا مؤذيا، وبخلافهم جميعا كان يملك جارًا أكثر إيذاء، يعمل في أرض الباشا، وقد أقسم- عقب مشادة تافهة- إنه سيحيل حياة عثمان جحيمًا.

ربما لم يكن أحد ليسمع عنه في الحياة مرة أخرى، لولا ذلك الحادث الذي تغير من بعده كل شيء.

كانت ليلة عادية، تحلّق يومها عثمان وزوجته ووالداه

وأبناؤه حول الطبلية، التي لم تحمل سوى قليل من الجبن وكسرات من الخبز وبعضًا من الخضر؛ طماطم وخيارًا. كانت الذئاب تعوي بالخارج، حين تعالت الطرقات على الباب بطريقة قبضت قلوب الجميع، حتى إنهم جميعًا شعروا بالخوف في ذات اللحظة وبذات الطريقة التي كانت لتبقيهم في أماكنهم حتى قيام الساعة، لكن عثمان توجه ناحية الباب وفتحه ليفاجأ بذلك الكيان الأسود الضخم، يقبضه من كتفه، مردّدًا: «يلّا يا حرامي.. جايلك نِفس تاكل!».

تحجرت اللقيمات في أفواه أسرته فراحوا جميعًا ينتحبون، بينما رجال السلطة يسحلونه على الأرض كالذبيحة، دون أن أدنى فرصة للدفاع عن نفسه.

تم اقتياده يومها إلى وكيل المديرية، وكان رجلا تركيا لم يعرف أحد عنه الرحمة، فسأله: لمَ سرقت يا عثمان؟ لكن الأخير أقسم إنه لم يفعل، فنهره بشدة قائلا له: «اسكت يا كذاب».

كانت أسرته تعلم أن حياتهم انتهت عند هذا الحد، وربما حياة عثمان، فالعقاب الذي ينزله وكيل المديرية لم يفر قط مرور الكرام بأي من أهل القرية، الذين إن لم يموتوا ألمًا ماتوا قهرًا، أو ربما خوفًا.

كان وكيل المديرية غاضبًا للغاية، فقد اعتبر السرقة المزعومة من جانب عثمان بمثابة إهانة له: «زميلك شهد إنه شافك شايل جوال من المحصول المحصود لبيتك».

«ماحصلش».

لم يعثر رجال الوكيل على أي أجولة في منزل عثمان، اللهم إلا مجموعة فارغة، قدروا أنها تلك المقصودة في البلاغ، وأنه قام بالتصرف في محتواها.

كانت ليلة ظلماء تلك التي سبقت عقابه أمام أهل القرية جميعًا، كان يحاول أن يظل متماسكًا؛ فهو يعلم أن الأبرياء يُنصفهم الله، لكن مع كل لحظة كانت تمر به كان يشعر أنه مُقبل على أمر عظيم، مؤلم ومخيف، لكنه أيضًا كان يشعر أن ثمة ما سيحدث قبل انبلاج الصباح فهو لا يستحق العقاب.

لهذا كتم أنفاسه في انتظار معجزة، لكن شيئًا لم يحدث حتى حانت لحظة العقاب، فتم طرحه أرضًا وتعليق قدميه على الفلقَة، وراح الوكيل يجلده على باطن قدميه حتى أتم ست جلدات، ثم سأله: «هل تعترف الآن أنك سارق؟»، لكن عثمان أقسم إنه لم يسرق، فقام بجلده ست جلدات أخرى، وسأله للمرة الأخيرة: «هل تعترف الآن؟»، فصمت عثمان ولم يرُد. هنا ثارت ثائرة الوكيل فهوى على جسده بالنبوت قبل أن يُخبر الجميع: «ماعادش لك عيش ولا أكل ولا شغل على أرضنا.. أنت مطرود».

«وإيه كمان؟ عين أعيان وخلاص كده! ما تكمّل يا راجل».

كان العمدة يحاول انتقاء كلماته فقال: «كان أكتر شيء يكرهه الظلم والافترا، وماكانش بيسكت عن حقه أبدًا».

يقال إنه في ليلتها لم ينم، وراح يزرع الأراضي الخاوية من

البشر والحجر، التي طردوه إليها زحفًا؛ حيث لم يكن يقوى على وضع قدميه في الأرض، ثم اختفى أربعين يومًا، مرت كأربعين عامًا، عانت خلالها أسرته الجوع والذل في ذلك الموضع النائي، فلم يكن يعطف عليهم سوى أسرة واحدة فقط في بلدة بعيدة، لم يلبث رَجُلها أن أصبح شيخ الحصة لاحقًا، وورثه أبناؤه من بعده، وآخرهم عوض.

«طيب بقى عمدة إزاي؟».

«جاتله من عند ربنا يا سعدية».

«إزاي؟!».

لم يدرِ أحد ما جرى بعدها سوى أنهم استيقظوا في أحد الأيام ليباشروا عملهم في الحقول، ولم تكد الساعة تصل إلى التاسعة صباحًا، حتى وقع انفجار عظيم في السماء، كان المشهد مرعبًا لذلك الجسم الضخم الذي انفجر في السماء إلى عدد من الأحجار الضخمة، التي راحت السماء تمطرها في زخات مهيبة كلما لامس أحدها الأرض تجدّد صوت الانفجار من جديد.

كان الانفجار عظيمًا للدرجة التي جعلت البعض يظن أنها القيامة، صحيح أنه لم يكن يوم جمعة، ولم تُشرق الشمس من مغربها في هذا اليوم، لكن أحدًا منهم لم يكن يملك وقتا للتفكير أو التفسير. هكذا راح الجميع يركضون، البعض لا يعلم إلى أين تحديدًا، والبعض الآخر نحو مركز الارتطام الذي استطاع أهالي القرى المجاورة رؤيته بوضوح من مواقعهم،

حتى هؤلاء الذين كانوا على بُعد سبعة كيلو مترات.

جسم ضخم، سقط فجأة من السماء، وانفجر في طريق سقوطه إلى مائة حجر أحاطت بقطعة الأرض المهجورة التي هرب إليها عثمان، من كل الجوانب تاركة ممرات بسيطة بينها وبين الخارج، وفي وسط القرية كان عثمان الكبير يقف بشموخ على الأرض الساخنة، وبينما كان الدخان يتصاعد في كل مكان، وقف والناس من حوله، يتأملون المشهد المهيب للقرية التي انبعقت فجأة، تخدها من كل الاتجاهات أحجار ضخمة، بألوان مختلفة، بعضها رمادي مخضر، والبعض الآخر أصفر كالكهرمان مطليّ بمادة منصهرة سوداء، وأخرى حمراء، أحجار السماء غارت في موضعها بالأرض، ولم يجرؤ أحد على تحريكها، فكل مَن لمسها في هذا اليوم، احترق.

منذ ذلك اليوم صارت قرية المائة وعلى رأسها عثمان وأحفاده، قائمة بقانونها الغريب، تطل على النهر من ناحية، وتفصلها عن بقية القرى في الناحية الأخرى أحجار السماء؛ مائة حجر، ومائة شخص بالتمام والكمال.

من بعد تلك الواقعة تربّع عثمان في منزل فاخر لم يكن أحد قد رآه في القرية من قبل، كأنما انبثق من باطن الأرض، في ذلك اليوم استيقظت زوجته وقد تبدل حالها فامتلأت غرفتها بالملابس الحريرية الفاخرة، واختفت الرقع من ملابس أبنائه التي تبدلت فجأة، فيما اختفى والداه.

قال العمدة لسعدية: «ربّك لما يريد!».

يومها وقف عثمان وزوجته وأبناؤه معًا في الشرفة وسط ذهول أهل القرية، الذين راحوا يتوافدون جميعا على ساحة المنزل حتى لم يعُد أحد في منزله.

يُقال إنه يومها اختار مَن يبقى في القرية ومَن يرحل منها، ويقال إن الجميع انصاعوا لأوامره فلم يبقَ في قريته سوى مائة شخص بالتمام والكمال كان هو وأسرته منهم. أما الوكيل فقد بلغت أنباؤه المديرية على النحو التالي: «اعتدى بالضرب على أحد أعيان القرية»؛ وهو الأمر الذي لم يبدُ مقبولا للمائة الباقين فبادروا بقطع الطريق إلى منزله، وقاموا بسد كل المسالك الموصلة إلى القرية حتى يتم عقاب الرجل، ولمّا لم تستجب المديرية ارتحلوا إلى أكثر من مائة كيلو متر إضافية سيرًا على الأقدام باتجاه المحافظة حيث راحوا يصرخون مطالبين بعقاب الوكيل الظالم الذي يُعذب أبناءهم ويُسخرهم لخدمته الشخصية لا خدمة القرية، وعليه تمّ وقف الوكيل أثناء نظر القضية لأنه عضو في مجلس المحافظة، وقد يحدث له مَيل أثناء التحقيق.

يُقال إن القضية انتهت بتوبيخ الوكيل وإيقافه عن العمل، إلا أنه وعقب ذلك لم يرَه أحد مرة أخرى لا في القرية ولا أي من القرى المجاورة أو حتى المحافظة.

تعدّدت الروايات التي فسّرت الحادث، حيث تكفّلت عجائز القرية بالحكي، فيما امتنع رجالها عن الحديث في الأمر. روت جدة إسماعيل أن الديك ذا الغُرف الأحمر هو السبب. ذلك الديك غير العادي الذي سبق له الظهور لعثمان مرة قبل

الحادث، بسبعة أشهر، بالتمام والكمال، على طرف الحقل. بدا هزيلا وضعيفا جدًا وقتها، وبدت قدمه وكأنها مكسورة. اقترب منه عثمان في ذلك اليوم فوجده لا يزال يتنفس، فراح يجرعه الماء وأخذه ليضعه في حظيرة منزله، بنيّة إكرامه حتى ينال عافيته، لكنه استيقظ في اليوم التالي دون أن يعثر للديك على أثر.

«الديك حب يكافئه». روت الجدة، مؤكدة أن هذا الديك لا يظهر إلا للمحظوظين والمختارين، يعرف مواضع الكنوز، ظهر للمحظوظ عثمان مرة بعدها في موضع كنز، لكن عثمان لم يفهم، فقط تعجّب من الظهور الجديد للديك الذي لم يبدُ له عاديا بعد تلك اللحظة.

يومها راح الديك ينقر ويتواثب في ذات الموضع يومًا بعد آخر حتى فهم عثمان، فراح يحفر لكنه لم يجد شيئا في البداية، لكن الديك نظر لعثمان نظرة غريبة وطويلة، وجد عثمان نفسه بعدها وقد فهم أن عليه البقاء لثلاثة أيام لا يكلم أحدًا، ولا يشاحن أحدًا، لم يكن الأمر سهلا لكن عثمان كان بحاجة لشيء؛ أي شيء يمنحه أملًا في البقاء وشعورًا بأن الكون لا يزال يملك شيئًا ليعطيه إياه، في قلب الأحجار المائة.

في ذات الموضع المحفور، وقف عثمان قبالة الديك في اليوم الأخير، حيث نقر الديك بمنقاره مرتين على نقطة بعينها فانكشف وانفتح له ما لم يأتِ أحدًا قبله ولا سيُتاح لأحد من بعده، كنزه هو وحده ينهل منه ما شاء حتى يموت ومعه السر

والقدرة.

لكن الرواية كانت مختلفة عند جدة جابر التي أخبرته أن عثمان؛ الرجل العادي، التقى رجلًا غير عادي، قادمًا من بلاد بعيدة، مصادفة، فأكرمه، وحكى له ما حلّ به، فقرر الضيف أن يعطيه مكافأة، لم تكن مالا ولا طعامًا، ولكنه أعطاه كتابا، قرأه عليه فصار به عليمًا، كلمات يصل مَن يحصيها إلى منبع أصول الحكمة، فيحيط بالاسم الأعظم، ويصل إلى السر الأرفع، وصل عثمان بصحبة الغريب إلى الأغوار المكنونة، وأدرك فتوحات إلهية جعلته بين ليلة وضُحاها من سارق إلى مالك، ومن ذليل إلى عزيز.

جدة جابر أشارت إلى أن الكتاب لا يزال يتوارثه آل عثمان، وآخرهم العمدة، والذي بموته، دون نسل، يختفي الكتاب، وتنتهي أسطورة المائة. عشرات الروايات ظهرت في أعقاب ما جرى، لكن الثابت أن مالك الأرض أصيب فجأة بمرض عضال، وتوفي موصيًا بأن تورث الأرض كلها إلى عثمان.

من بين ما قيل إن «شيئا» ظهر لعثمان، كان أهل القرية المؤمنون بتلك الرواية يُحوقِلون ويُبسمِلون ويَنعتونه بـ«أعوذ بالله». يقال إن عهدًا كتب بين عثمان والشيء، جعله على ما هو عليه، لكن قليلين من أهل القرية فقط هم مَن تمسكوا بالرواية الأضعف؛ أن يديه المظلومتين امتدتا إلى السماء ترجوان القصاص؛ فنال الجبران الذي لم يخطر على قلب بشر.

«أصل جدي كان في بينه وبين ربنا عمّار».

لم يقصص عثمان على أحد حقيقة ما جرى، بما في ذلك زوجته وأبناؤه، فقط أخبرهم نبوءته بشأن القرية التي باع عثمان كل شيء كي يجعلها جنة، هكذا جلب للقرية اشياء لم تخطر على قلب سكانها من قبل، فيما عاش أبناؤه حياة الترف والفسوق قبل أن يعودوا جميعًا إلى داره قبل أن يموت ليوصيهم أن الباقي إن تبدد فلن يعود لهم وجود. ترك الرجل ورقة خلفه:

«في تلك البقعة أنتم الأسياد ما دمتم مائة. إن زدتم نالكم الفَقْد، وإن نقصتم عاجلكم الفناء. في الحالين سوف يهجر الحظ أرضكم ويعود إلى السماء، بعد ٤٠، هل يحملكم ذلك على البكاء؟ سيتبع ذلك ما هو أفظع، إن وُلِد لكم ذكور نجباء، فستنقطع بكم السبل ويَضحى ماؤكم غورًا، وسيجاوز عدد موتاكم مَن بقي منكم أحياء».

في ذلك اليوم انكتب العهد بحبر غير مرئي في صدور أبناء عثمان وأحفاده من بعدهم، لا تجاوز قريتهم المائة ولا تقل عنها، وإلا فالذل والدمار جزاء مَن يجفل. والأهم ألا يبقى ذكور نجباء.

حفظ الجميع النبوءة عن ظهر قلب، وراحوا يحافظون عليها وريثًا بعد آخر، عقب وفاته.

صحيح أن نسل العائلة راح يتقلص حتى لم يعد هناك أحد باقيًا من عائلة عثمان سوى العمدة وزوجتيه، حيث لم يحظَ

العمدة قط بأطفال، إلا أن رغبته العارمة في وريث جاءت بسعدية، التي لم تظهر لها كرامة بعد، ولم تبدُ عليها علامات لحبل.

«وأديني أهو مِستنيكِ تجيبيلنا عثمان الصغير».

لا تعلم، أيّ من أنهار وسعدية، أن زوجةً ممن سبقت الاثنتين، يئست من نعتها بالعاقر، فقررت الذهاب لحكيم في مكان بعيد، لكن العمدة الذي حذّرها من الخطوة لم يلبث أن أضاف اسمها لكشوف المختارين. هكذا صعدت إلى هناك، ليُدلل بها العمدة، أن المختارين، يمكن أن يخرجوا من أي بيت، ولو كان بيت العمدة نفسه.

حين اختار العمدة أنهار، كانت أصغر سنًا وأكثر جمالا. كانت أنهار اختيارًا عاقلا من العمدة الذي بحث عن أكثر العائلات التي اشتهرت بالخصوبة وخلي تاريخهم من أي عاقر. لكن سبع سنوات كانت كافية ليتأكد أنها لن تنجب منه، لكنّ أملا ظل يلحّ على قلبه، أنه ربما لو تزوج من جديد فقد يقف الحظ إلى جانبه، وإلا فسوف يكون هو آخر نسل باقٍ من آل عثمان.

***

عامان من الصداقة، تحول خلالهما داود إلى نسخة جديدة من سيادة، كانت الأخيرة تعامله كمساعدها الخاص في النظافة والطهي، وكانت عوض، هي تلميذه الوحيد، يُلقنه كل دروس سيادة بذات الحسم والصرامة. هكذا تعلمت أن تضع

ملابسها الملوثة في الترعة، وأن تغسلها بطريقة معينة، ثم تنشرها في الشمس، حتى إنها توقفت عن التبول على نفسها.

توطدت الصداقة السرية بين داود وعوض، بعيدًا عن العيون، حيث لم يكن مسموحًا لداود بالظهور لأهل القرية، ولا عادت عوض ترغب في الاحتكاك بأحدهم، لكن الملل تسرب إليهما فراح داود يبحث عن أنشطة أكثر إمتاعًا من سرقة حلوى النعناع من سيادة أو قص الحكايات عن توفيق.

«تيجي نروح بيت توفيق؟». كانا يلعبان لعبة أولى، وفيما هما يقفزان فوق المربعات المرسومة على الطين، خرج الاقتراح دون مقدمات، كان داود يفكر باستمرار، في السبب الذي يخيف أهل القرية من بيت توفيق، فلا يقتربون. لماذا لم يحاول أحد زيارة توفيق؟ لماذا يخشى الجميع البيت وصاحبه بهذا الشكل؟ إن كان يحمي القرية من الغرق، ويوصل أبناءها المختارين إلى المستقر، فلماذا يجب أن يخشاه.

«فِكرك يا عوض توفيق يعرف حاجة عن أمي؟ يمكن يحكيلي قالتله إيه، ولّا يمكن يعرف يودّيني عندها».

هزت عوض كتفيها بلا مبالاة، فيما هتف داود: «شكلِك خايفة».

لكن عوض التي واصلت القفز بحماس، لم تكن تفهم في الواقع مَن هو توفيق، ولا أهمية الذهاب إلى هناك، وفيما جذبها داود من يديها هاتفًا بحماس: «يلّا بينا»، انطلقت هي

بضحبته دون مقاومة، كما اعتادت أن تفعل حين يعجبها شيء.

«إحنا مش هندخل عنده النهارده.. إحنا هنراقب الجو ونشوف هنعمل إيه الأيام الجاية».

هكذا راحا يقتربان شيئًا فشيئًا، يومًا بعد آخر، نحو ذلك الهدف، عند طرف القرية، حيث كان السور يَحول بينهما وبين توفيق.

وفي اليوم العاشر، حين وصلا إلى أقرب نقطة من البيت، توقف داود ونظر لعوض: «تفتكري توفيق طيّب؛ هيرحّب بينا.. ولا شرير؛ هيعذبنا؟».

وصل الطفلان إلى البوابة الأولى، والأقرب، لكن لم يبدُ أنها قد تحركت منذ سنوات، حاول كلاهما دفعها أو محاولة الوصول إلى مِزلاجها المرتفع، لكن بدا الأمر بلا أمل في الواقع مع كميات التراب والطين التي كانت تعلوها.

كان داود يعلم أن البوابة التي يدخل منها المختارون، تلك المطلة على النيل، هكذا يركبون قاربًا ليعبروا مسافة صغيرة نحو باب الأبدية.

الكثير من المحاولات، انتهت بجلوسهما لاهثين عند البوابة، فيما بدا داود مصممًا على الوصول إلى الداخل، حكّ رأسه، ونظر عن يمينه ويساره، قبل أن يسأل بيأس: «ندخل إزاي؟ تيجي ننط فوق السور؟».

لكنها عوضًا عن ذلك توجهت بهدوء إلى البوابة حيث دقت الحدوة المعلقة على الباب متقن الصنع لتُصدر صوتًا مكتومًا، جعلهما على يقين أن أحدًا لن يسمع صوته أبدًا.

«إيه الذكاء دا كله، وهو لو بيفتح الباب كان يبقى ده منظر البوابة!».

كانت عوض منهمكة في جمع بعض حبات من التمر على الأرض، تمسحه بكُم جلبابها وتأكله بتلذُّذ، حيث شاركها داود الاستمتاع في صمت.

فوق الأرض الترابية جلس كل منهما قبالة الآخر يلعبان بالحصى في انتظار المستحيل.

«نِفسي تكلميني زي ما بكلمك، ساعات باحس إني باكلم نفسي». لكن عوض كانت تراقب من بعيد ذلك الباب الصغير الذي انفتح وأغلق سريعًا خلف شجرة التوت والأعشاب العالية، باب في السور، من نفس لون الحجارة يُخيل إلى رائيه أنه جزء من السور، فلا يُرى إلا إذا انفتح.

«يا بنتي عليكِ الدور العبي».

لكنها تركته حيث هو، وراحت صوب الباب الصغير المخفيّ: «رايحة فين يا مغلباني؟».

أشارت إلى الباب، فبدا لداود أن ذلك الجزء مختلف بالفعل عن بقية السور، راح يتحسسه ليكتشف ما رأته عوض تؤًا: «دا الباب التالت السري. ده باب فعلا يا لئيمة. عرفتيه إزاي!».

كانت عوض تتفحصه بدورها، حيث بدا بلا أي مصراع أو نتوء يساعدهم على فتحه. «شكلك عليكِ جِن فعلا يا عوض، وهتموتيني في الآخرا».

لكنه صمت للحظة قبل أن يفكر في نظرتها خلفه قبل دقائق: «إنتِ شوفتِ حاجة؟». فأومأت برأسها أن نعم. هنا فهم أن ضالتهما كانت على بُعد خطوات منهما، وبينما كان يلاعبها بالحصى. «توفيق فتح الباب!». قالها فيما تهلّلت أساريره وراح يتواثب في الهواء بسعادة وحماس، بدا مشهده بالنسبة لعوض مضحكًا وهو يُردد دون توقف: «توفيق حي».

***

وصل أمر سعدية إلى درجة لا يمكن تجاهلها، صحيح أن نومها الطويل، حتى بعد العصر، كان يمنح أنهار براحًا، وشعورًا أنها استعادت بيتها، ولو لعدة ساعات، إلا أنها ظلت تتساءل حول السر وراء تلك المرأة، كان الفضول قويًا، والغيظ أشد، من تلك التي تستيقظ فتجد البيت نظيفًا والطعام جاهزًا، فلا تبذل جهدًا إلا في العناية بنفسها، والتأنق من أجل ليلة صاخبة جديدة.

«لا بد من نهاية لهذا كله.. صار الوضع لا يُطاق على أي وجه». قالتها أنهار في نفسها، وقد صارت تعلم خطوتها التالية، خاصة بعد أن أخبرتها سكينة عن جولات سعدية الليلية على بعض منازل القرية، حيث تطرح الكثير من

الأسئلة على الأهالي، وتسمع الكثير من الحكايات.

اتخذت أنهار قرارها بعد أن سألت العمدة عن سِر سماحه لسعدية بالمرور على بيوت القرية، فأخبرها بأريحية: «أهي بتسلّي نفسها».

لم تُخبره أنهار بشأن الخروج الليلي، ونامت في عصر ذلك اليوم، القدر الذي يسمح لها بمراقبة يقظة لسعدية، وما إن حل الليل، حتى وضعت وسادة موضعها، وخرجت تترقب في الخارج مُتحينة اللحظة المناسبة للانطلاق وراء ضُرتها.

***

قضى الصغيران ساعات طويلة أمام الباب، انتهت دون أمل، لا أحد من رجال العمدة في المحيط؛ لذا فإن الشخص الذي فتح البوابة الصغيرة هو توفيق بكل تأكيد، هكذا راح داود يفكر طوال الليل.

نظرت له عوض باستغراب، لكنه أجابها سريعًا: «ليكي حق ما تصدقيش، بس أنا سمعت عنه حكايات ياما. ساعة يقولوا كان دكتور، وساعة يقولوا كان مهندس. أبويا بيقول إنه وليّ من أولياء الله الصالحين، بس أبوكِ دايمًا يقول إنه مجنون وحط على البلد. أقولك الصدق؟ أنا باحبه ونِفسي أقابله».

مر اليوم ثقيلا، أمام الباب الذي لم ينفتح مرة أخرى، لكن داود لم ييأس: «بكرة هنتقابل هناهو. سلام يا عوض».

ودّع الصغيرة ليحل اليوم التالي سريعًا، حيث عاد كلاهما

إلى نفس الموضع أبكر من المعتاد، كانت عوض قد بدأت تهتم كثيرًا بذلك الباب الذي رأته وحدها وهو ينفتح، ربما كانت المرة الأولى في حياتها التي تشعر باهتمام تجاه شيء ما، كانت متحمسة أيضًا للعبور إلى الجانب الآخر، سرت عدوى الفضول لدى داود إلى قلبها، فتعلقت عيناها طوال الوقت بالبوابة الصغيرة. كان الخريف في نهايته، لفحهما الهواء البارد المحمّل بالأتربة، ما أصابهما بالقشعريرة، والسعال، لكنهما لم يتراجعا. يومًا بعد آخر، أصبح المكوث أمام تلك البوابة بالذات هو موضعهما المفضل، حيث لا أحد من أهل القرية يفكر في الاقتراب، لا مصالح أو محالّ في الجوار. لا أحد يأتي إلى تلك البقعة سوى داود وعوض، حيث أصبح اللعب يحلو لهما أسفل الشجرة بجوار الباب، وفي بعض الأحيان كان داود يخاطب توفيق كأنه هناك خلف الباب يسمعه:

«أنا نِفسي أشوفك.. إنت ما تعرفنيش، لكن أنا عارفك كويس أوي يا خال توفيق. نِفسي تفتح لنا.. أمي عاملة إيه عندك؟». راح داود يخاطب الباب المغلق، بينما عوض تُنصت له باهتمام، حيث انتقل داود يومًا بعد آخر من رجاءات فَتح الباب إلى حكايات لا نهائية عن أمه المتوفاة، ووالده الذي يكره كل تصرفاته، خروجه خلسة وسرقته لحلوى النعناع من سيادة، وكل تفاصيل حياته تقريبًا، أما عوض فلم تتجرأ على الحديث سوى مرة واحدة حاول داود أن يعطيها الدور في الحديث فراحت تُردد: «عوض، عوض، عوض»، كانت تبكي

وهي تُردد حتى إن داود استوقفها متندرًا: «إنتِ ماعندكيش غير اسمك ترددِيه.. كفاية نكد والنبي».

لكنه انتبه للمرة الأولى أن عوض اسم رجل وليس فتاة، وأنها تشترك مع والدها فيه!

«إنتِ اسمك الحقيقي عوض فعلا؟ مالقوش غير اسم أبوكِ؟ أكيد ليكي اسم، إبقي اسألي أمك تاني يمكن ليكي اسم غيره». لم تزد الصغيرة، فقط أعادت تثبيت عينيها على الباب، لكن داود أخبرها أن الوقت قد سرقهما، وعليهما العودة إلى المنزل الآن، قبل أن يحل الليل، ويستحيل الرجوع.

***

تلفتت سعدية حولها مرة بعد أخرى، كانت تحمل في يدها حزمة أوراق وهي تتجه مُسرعة صوب النهر. كان ثمة قارب صغير بانتظارها، لم تتبين أنهار شيئًا من وجه الرجل الملثم بشال على القارب، لكنها وما إن ركبت حتى انطلق، لكنه لم يذهب للجانب الآخر، وإنما للمصادفة، سار بمحاذاة الشاطئ، حتى لم تغد قادرة على رؤية شيء.

حاولت أن تفكر في المكان الذي يمكن أن يكونا قد ذهبا إليه، لكن المسألة لم تكن بحاجة إلى تفكير، المكان الوحيد الذي يمكن أن يذهبا إليه بقارب مماثل كان بيت توفيق.

تجمدت أنهار في مكانها، وشعرت أنها بصدد أمر جلَل. توقفت لدقائق وهي تتساءل عما فعلت بنفسها للتو:

«ماذا أفعل الآن؟».

بدَت لنفسها كطفل تائه، بعد أن اكتشفت أن المعرفة أكثر إيذاء من الجهل أحيانًا. إن كان المرء لن يحتمل ما يجهل، فربما عليه أن يظل في غفلته.

لا أحد يدخل بيت توفيق سوى العمدة والحرس والمختارين. كيف لتلك السيدة أن تدخل إلى هناك بهذه السهولة.

***

في طريقهما للعودة، بدا أن الوقت قد سرقهما بالفعل. انحدرت الشمس، لتغرب، وانقبض قلب داود، هو يعلم جيدًا إلامَ تصير الأمور حين يتأخر بهذا القدر؛ لذا وفيما هرول داود نحو منزله، كانت عوض تسير بتؤدة، نحو منزلها، غير عابئة بشيء.

تجمدت الدماء في عروق داود حين وجد والده على باب الدار يجول بعينيه في كل مكان حتى رآه مُقبلًا فتهللت أساريره. اطمأن قلب داود، قبل أن ينقبض مرة أخرى، حين عبس وجه والده: «كنت فين؟». قالها مزمجرًا، قبل أن يمسكه بعنف شديد، ويوثقه إلى قدم السرير في غرفة سيادة، مانعًا الجميع من الدخول.

في موضعه على الأرض، تلقى داود عددًا من الركلات، واللكمات، باستسلام، شاعرًا أنه يستحقها، ولا حق له في المقاومة أو الاعتراض. لكن استسلامه، بدا مُستفزا لجابر

أكثر، فهتف بصوت كالرعد: «كنت فين؟»، حاول داود أن يُخبره أنه كان يلعب في الحقل، وأن الوقت قد سرقه، لكن شرحه كان يزيد والده غضبًا، قبل أن يخرج متوعدًا له بالمزيد إن رأى ظِلّه خارج البيت.

انتهت «العلقة» وساد صمت، قبل أن تفتح سيادة باب الغرفة، المظلمة، وضعت الصحفة في يديها على السرير، وقد بدا له هذا غريبًا، فلم يكن من قوانين البيت أن يتناول أحدهم طعامه فوق السرير، ثم اتجهت إلى ركن الغرفة، حيث أوقدت لمبة الجاز، بضوء خافت، كي لا يزعج عينيه، فقد صارت تعلم أن عينيه حسّاستان للضوء، ثم جلست قبالته، لتفك وثاقه.

أخذت سيادة بيدَي داود، حتى جلس فوق السرير، قبالة الصحفة، ثم قالت له: «كُل». قالتها، بنبرة لم تصدر عنها من قبل، بدا له الفراش وثيرًا، عقب ذلك الوقت الذي قضاه جالسًا على الأرض، لكن الأمر الأغرب على الإطلاق، كان ما فعلته سيادة. كانت تلك هي المرة الأولى على الإطلاق، التي تربت فيها على كتف داود مؤكدة: «أبوك دمه نشف عليك، كان هيموت من الرعب، أبوك بيحبك وبيخاف عليك يا حبيبي، افتكرنا صابَك مكروه».

لم تلتقط أذنه حرفًا مما قيل له سوى «حبيبي» كما لم ينتبه إلى أي من تلك الآلام التي بدأت تسري في كتفيه وقدميه ووجهه، ولكنه انتبه فجأة إلى أثر يد سيادة على كتفه، كانت تلك هي المرة الأولى التي تنطق فيها سيادة كلمة مماثلة، أو

تتحدث بقدر مماثل من اللين. لم تلمسه سيادة من قبل، ما جعله يشعر بشيء بدا له غريبًا لكنه محبّب، ربما للمرة الأولى في حياته منذ توفيت أمه، وربتت عوض على ظهره. تناول داود طعامه بحماس شديد وغط في نوم عميق، بينما شبح توفيق الذي يبدو أنه ظهر أخيرا، وسيادة التي تحبه يداعبان خياله بسعادة.

***

لم يبدُ أن أحدًا لاحظ غياب عوض، حين وصلت إلى البيت كان الجميع مجتمعون حول طبلية الطعام، سألتها أمها: «مش هتاكلي؟»، لكنها لم ترد؛ حيث ذهبت إلى فرشتها على الأرض وجلست بتثاقل، حيث كانت ترغب في النوم بشدة، قبل أن يأمرها والدها: «ادخلي عمّريلي فحم». تجمدت ملامحها وشعرت كأن أحدهم سكب عليها الماء توًا. قليلة هي المرات التي كان عوض يتوجه فيها بالحديث إلى عوض الصغير، بشكل مباشرة. عادة ما يوكزها، أو يدفعها، مشيرًا بيديه لما يريد، وعليها أن تفهم وإلا ضربتها أمها، أو حتى أحرقتها. لم تكن قادرة على تلقي أي ضربات في هذا اليوم؛ لذا تظاهرت بالرغبة في النوم، فنهرها، ولم يُشِر كما اعتاد من قبل، ولكنه هتف: «قومي يا بت حضّري التعميرة وخليكي جوة عشان تغيّريلي الفحم».

هكذا توجهت إلى الغرفة ذات الباب المحكَم، بينما ذهبت حسنية لتنام، وكذلك فعل أشقاؤها. أمرٌ ما بداخلها كان يجعل من طلبات عوض، أمرًا يسيرا عليها، تحب أن تفعله، على الوجه الذي يريد، ليس لأنها لا تريد أن تلقى تقريعا أو ضربا من أمها، ولكن لسبب آخر تمامًا.

هكذا سارعت إلى تحضير الفحم بمهارة، أوقدت النار، ووضعت حبات الفحم، ثم راحت تتأمل الكُتل السوداء، تستحيل فجأة إلى جمر مُتقد. كان هذا المشهد يمنحها راحة من نوع خاص، أن يتحول الموت المُسربل بالأسود، إلى حياة مفعمة مشتعلة، كذلك قلبها كالفحم بين يديها، أسود منطفئ

في غياب عوض، لكن شيئا ما يشتعل بقلبها في حضوره، لم يكن والدها قاسيًا معها كأمها، في الواقع لم يكن يراها أو بالأحرى كان يتجاهلها طوال الوقت، وكان هذا يزيده جلالًا ومهابة في عينيها.

«روحي إنتِ خلاص مش عاوزك». قالها فيما جلست القرفصاء بعيدًا عنه تتأمل قرقرته للشيشة وتتذكر حكايات داود عن والده: «أنا أبويا يقدر يقلع نخلة من مطرحها ويشيلها على كتفه، مرة عملها قدام عيني». لم تكن عوض قد رأت بطولات لوالدها، لكنها أرادات أن تروي أمورًا تثق أن والدها قادر عليها، حيث لم يكن لديها شك في أنه أقوى من والد داود، وأن ذراعيه قادرتان على حملها وأمها وأشقائها الخمسة دفعة واحدة إن أراد.

كان النوم يداعب جفنيها، لكنها جاهدت لتبقى مستيقظة؛ فهي لا تجلس بالقرب منه سوى في ذلك الوقت، والقرب منه له وَقْع غريب في قلبها؛ تحبه وتنتظر تلك اللحظة حين يغالب النوم عوض الكبير، تتأكد من نومه حين يتعالى صوت شخيره فتنسلّ إلى ذلك الموضع بين ذراعيه، بحيث تحيطانها بذات الطريقة التي رأت جارهم أبو سالم، يحتضن بهما ابنته رقية.

كان عوض الكبير يغط في النوم بعينين نصف مفتوحتين، تبدوان وكأنهما تنظران إلى عوض الصغيرة، دون أن يفعل في الحقيقة.

كانت ذراعاه الكبيرتان ودفء صدره وكفه الضخمة المرتخية التي تبتلع كفها الصغيرة، المكان الوحيد حيث تنتمي وتحب. لكنها كانت تسارع عقب فترة وجيزة بالابتعاد خشية أن يستيقظ ويراها، كان سرقتها الصغيرة كافية بالنسبة لها كي تنام قريرة العين، في انتظار يوم حافل، ينتظرها وداود في اليوم التالي.

***

«مفيش خروج». قالها جابر فجر اليوم التالي بحسم، مُعلنًا أنه ترك غرفته لداود، لأنها الغرفة الوحيدة بالمنزل، التي تحمل مزلاجًا، وكذلك المكان الوحيد الوثير الذي يرضاه له «حجزًا». لم يصدق الصغير أذنيه، لكنه لم يتجرأ على المقاومة: «ماذا عن عوض الصغير.. بالتأكيد ذهبت إلى هناك الآن».

شعر بشيء ما يحترق في صدره، كأن العالم بالكامل يفوته الآن بالخارج، مرّ الوقت ثقيلا جدًا، حتى انقضى اليوم الأول، تصور أنه قد يخرج مع فجر اليوم التالي، لكن ظل المزلاج مغلقًا، ساعة بعد أخرى، حيث كان يتوقع أن أحدا من أشقائه أو حتى سيادة قد يتوسط له عند والده، لكن انقضى اليوم الثاني بذات الطريقة وصار داود يشعر من بعده أن صدره قد صار ضيقًا حرجًا.

بدت جدران الغرفة الطينية لداود كالقبر، خلف الباب المغلق، والنوافذ المعتمة بمسامير، قال في نفسه: لو مت الآن

فلن يشعر أحد بما جرى لي، ما الفارق بين الحياة والموت في تلك البقعة المقيتة. وجد نفسه يتمنى لو يصيبه ما سبق أن أصاب شقيقيه. «على الأقل هما الآن بصحبة أمي، أما أنا هنا فيعاملوني كالبهيمة؛ آكل وأشرب وأنام. ما الفائدة من حياتي؟».

كان يضيق بالحياة يومًا بعد يوم. ١٠ أيام بالتمام والكمال حبيس غرفته جعلته يشعر أن الكون أشبه بحفرة صغيرة وقع فيها دون أمل في أن يدركه أحد، حتى انفتح الباب فلم يلتفت داود، كانت سيادة تضع له صحفة طعام، وتحمل أخرى بدا أنه لم يمسها. «وبعدين؟ كدا هتموت».

«يا ريت».

«كُل وبكرة هحلّهالك».

«ما عادش رجا خلاص».

«عُمري وعدتك وخلفت يا داود؟».

«أبدًا».

«يبقى كُل وبكرة هطيّب خاطرك».

«وليه مش دلوقتي؟».

«عشان العَملة دي ما ينفعش تحصل غير في النهار».

بدت له كلماتها غريبة وطريقتها أغرب، لكنه كان يثق في سيادة ووعودها؛ لذا استسلم للجوع وراح يلتهم ما

على الصحفة بنهَم شديد. كانت سيادة تعلم ما يحب فعلا، أعدت له طاجن رز معمّر بالدجاج اللذيذ، مع طبق صغير من البطاطس بالطماطم المسبكة، في الفرن، شهي للدرجة التي لم يقاوم معها.

أجهز على الطعام، وحين قارب على إنهائه تذكّر عوض الصغيرة: هل ملّت الذهاب إلى بيت توفيق؟ هل سيراها في اليوم التالي؟

لكن خطر له فجأة وَغد سيادة له فذهب بعقله إلى منطقة مختلفة: «ماذا تخبئ لي سيادة في الغد؟». كان السؤال في حد ذاته يثير نشوة من نوع خاص في قلبه، راح يتخيل كل الأشياء الجميلة التي يمكن أن تهديه إياه سيادة، يمكنها أن تُعد له مهلبية بالفانيليا، تلك التي تُطير عقله كلما أعدتها أو لعلها ستصنع لأجله خصيصًا ذلك الكسكسي بالسمن البلدي والسكّر واللبن والقشدة؟ لم يتناول حلوى منذ وقت طويل، أو لعلها ستهديه قطعة حلاوة طحينية فاخرة من تلك التي يجلبها لها والدها من وقت لآخر.

«بقيت ببطن يا داود؛ بتفكّر في الأكل وبس، بكرة يربطوك بحبل من رقبتك ويحطولك غَلة زي المواشي». قالها بصوت عالٍ لنفسه مع تعبيرات غاضبة على وجهه قبل أن يُغالبه النوم، حيث رأى في نومه الهدايا المحتملة التي يمكن أن تهديه إياها سيادة.

***

في الطريق الطويل من قرية المائة إلى المكتب البعيد، كان تراب السكة، يزكم أنف إسماعيل، مشوار ثقيل، لم يكن أثقل منه سوى أمرين، المرور من بين الأحجار الضخمة ذهابًا وإيابًا، ولحظة العودة إلى العمدة من أجل إعلامه بكل ما دار مع الوكيل.

سنوات طويلة كانت وظيفة إسماعيل خلالها هو ذلك المشوار الشهري؛ لذا صار يعلم الخطوات جيدًا، يبدأ الأمر بركوب حماره إلى هناك، ثم محاولة النفاذ بين الأحجار الضخمة، ثم مواجهة العالم خلفها، كان بالنسبة إليه عالمًا آخر تمامًا، الناس يتحدثون بصوت مختلف، ويتعاملون بطريقة مختلفة، ويدفنون موتاهم، أسفل شواهد، كان مشواره يتضمن المرور عليها.

ناظرا في الأرض، واصل إسماعيل طريقه إلى وكيل المديرية، كي يسلمه دفاتر قرية المائة، وحين وصل إلى هناك، استقبله الوكيل بالمزحة المعتادة قائلا: «أهلا بالمختار المنتظر»، لم تكن مزحته تلك تُضحك إسماعيل، وإنما كانت تقبض قلبه وترعبه من المختار التالي، فربما كان هو أو واحدًا من أهل بيته. ماذا لو أخذ رسلُ العمدة ابنَه؟!

لكن إسماعيل كان يلقي الأفكار جميعها من رأسه سريعًا، فبعض الأمور لا يرغب المرء حتى أن تخطر له ببال، لذا حاول أن يلتزم الصمت، ويُبدي ابتسامة مُجامِلة للرجل، لكنها خرجت باهتة، وسرعان ما استحالت عبوسًا.

قرأ الوكيل وجهَ الرجل جيدا، وسأله بجدية: «لما أنت قرفان أوي كده، إيه اللي مسكّتكم عليه.. ناسكم بتروح فين؟».

كانت أسئلته مفزعة، بلا إجابات، لكن إسماعيل أراد استفزازه هذه المرة، فطرح عليه سؤالا بالمقابل: «وأنتو إيه اللي مسكّتكم عليه؟!».

فأجابه الوكيل: «حد اشتكى؟ حد بلّغ؟ حد قال فين عيالي؟ الراجل بيدفع كويس وييهاوِد في تمن المحصول، وشاري الرضا.. نتدخل ليه؟».

كان إسماعيل يكره قانون المائة، لكنه يوقن من عواقب مخالفته؛ لذا ابتلع لسانه، وهضم كل الاحتمالات الممكنة، وشعر أن بقاءه آمِنًا وسط المائة، ولو ليوم واحد، يستحق التضحية بأي شيء، حتى لو كان هو أو أي من أسرته، التالين، على الجميع تسري قوانين القرية، ولو كانت قاسية.

منحته تلك الأفكار راحة سريعة، بددت توتره وخوفه، لكن فكرة مباغتة بدّدت مشاعر الارتياح التي كادت تُهدئه، حيث قفز لعقله سؤال مفاجئ، لم يخطر له من قبل: «لماذا لا يسري قانون المائة على بيت عوض؟».

***

حل الصباح سريعًا، عبقت أنف داود روائح قادمة من كانون سيادة، خمن أنها تُعد خلطتها المتقنة لمحشي الكرنب، فيما بدت رائحة سلق الدجاج مميزة جدًا، لطالما تساءل داود، منذ

جاءت سيادة إلى بيتهم، عن السر الذي يُحول طيور سيادة من «زفر» إلى لحم طير شهيّ، يختلف مذاقه ورائحته عن أي شيء تذوّقه من قبل.

«إذًا اليوم هو يوم مميز جدًا». هتف بها في نفسه، وأزاح الغطاء بنشاط، فقد كان لدى داود سبب هذا الصباح ليستيقظ من أجله، هدية سيادة.

«تُرى ما هي؟!». لم يتجرأ على الخروج من غرفته خشية من والده، كما لم يرغب في الظهور بمظهر المتهافت؛ لذا تظاهر بعدم الاكتراث. فلم يسأل أو يُبدي فضولا، لكن سيادة تأخرت عليه، لم تدخل إلى غرفته إلا عقب رحيل آخر شخص في المنزل إلى الحقل.

فجأة ظهرت سيادة، واتجهت نحو دولابها، فتحته وكان ظهرها مُواجِهًا لداود؛ لذا لم يرَ ما تفعله. «تعالَ يا داود بُص».

كان دولاب سيادة منطقة مُحرمة، لا أحد يقترب منه، لكنها الآن تفتحه، وتدعوه إلى النظر داخله، تلك إذًا قصة كبيرة.

اقترب داود، ففاجأته سيادة أن أخرجت حفنة من حلو النعناع فتجمدت الدماء في عروق داود، الذي تظاهر بعدم الفهم، فناولته له: «خد يا داود»، فسألها: «أعمل بيها إيه؟»، فنظرت له بخبث قائلة: «وإنت فاكرني ماأعرفش.. النعناع ده ليك».

كاد داود أن يكذب، لكنها عاجلته: «أنا عارفة إنت أخدت كام حباية نعناع، كنت بتنسى ترجّع الهدوم زي ما كانت، فاتتك

دي».

في تلك اللحظة شعر بالغباء والسعادة في نفس اللحظة. «إذًا لست مجرمًا». ثم لم يلبث أن فطن أن سيادة كانت تعلم كل هذه الفترة وتركته، دون تقريع أو وشاية لوالده، فلم يتمالك نفسه حيث ارتمى في حضنها، لم تستطع ردعه، بل استسلمت للحضن الصغير الذي أشاع في قلبها دفئًا لم تشعر به من قبل.

«بتروح بيه فين؟». ربتت على كتفه وأبعدته بلطف ثم طرحت السؤال الذي لم يكذب داود في الإجابة عليه، أخبرها بشأن عوض الصغير، ومكانها السري، لكنه لم يخبرها بشأن المحاولات الأخيرة لدخول منزل توفيق، وحين أنهى حديثه، أخبرته: «ما دام بعيد عن عيون أهل البلد، خد النعناه وزوح مطرح ما تحب، لكن ترجع قبل ميعاد أبوك وإخواتك».

كانت الفرحة في عينَي داود كافية للتأكيد على التزامه. شعر للحظة أنه استرد حياته مرة أخرى فشكرها بامتنان عميق ورحل راكضًا خارج المنزل.

فيما بقيت هي جالسة فوق السرير تشعر باضطراب شديد: «وبعدين يا سيادة!». قالتها بصوت مرتفع، لم يكن أي من هذا ضمن خطتها، لطالما نجحت في رسم صورة «سيادة الصارمة»، هي تعلم أن التعامل مع عائلة من الذكور أمرًا ليس هينًا، لكن هذا الصغير يجعلها ترغب في ابتلاعه كي يظل هناك داخلها، تحديدًا إلى جوار قلبها، فلا يضيره شيء أبدًا.

«لماذا داود بالذات؟ هل يمكن أن أشعر بمشاعر أمومة وأنا لم أنجب في حياتي؟ هل هذا ما تشعر به الأمهات؟ الخوف الذي يُحيل الصرامة دلالًا؟ والحب الذي يُحيل القسوة رقةً؟ لماذا أحبك يا داود بهذا الشكل؟ لماذا أشعر أنك كنت يومًا ما في أحشائي ترقد فوق كبدي وتستند إلى ظهري.. كأنني أراك منذ أيامك الأولى، كيف يمكن أن أتعلق بك إلى هذا الحد ولماذا؟!».

كانت الأسئلة تُخيف سيادة؛ فهي تعني أن تغيرًا ما بدأ يطرأ على ذلك القلب الذي أقسمت إنه لن ينجرح مرة أخرى. بدا تعلقها بداود مخيفًا لها؛ فهو ليس تعلُّقًا بين رجل وامرأة، يمكن لكل منهم أن يعثر على بديل متى شاء، وإنما تعلُّق بين أم وابنها، أم كادت تموت كمدًا حين امتنع داود عن الطعام؛ لذا سمحت له بالخروج رغم رغبة أبيه. كان آخر ما يمكن أن تفعله سيادة هو أن تخرق اتفاقًا أو تخون كلمة، لكنها فعلت؛ فقط لأنها تريده سعيدًا وبخير.

***

ظنت أنهار أنها على أعتاب حل مشكلتها؛ ضرتها خائنة، وهي الزوجة المخلصة المحبة، الحل على بُعد خطوة واحدة، والتخلص من سعدية صار وشيكًا، لكن الأمر ليس بهذه السهولة. ما أفظع الحقيقة، مَن يمكنه أن يحتملها!

لم تتوقف أنهار عن البكاء، لم تدرِ هل كانت تبكي نفسها وما جرى بحقها، أم تبكي العمدة الذي لاقى جزاءً غير متوقَّع؟

شعرت أنها مُكبلة وتائهة. لم يكن الأمر بهذه السهولة بالنسبة لها. صحيح أن كل شيء واضح لكنه وضوح مُعقّد، فالشخص الوحيد الذي كان يتدبر الأمور ويخبرها بما يجب القيام به، تحول من خانة الفاعل، إلى خانة المفعول به. تحوّل مُخيف، خطر لها لحظتها، المعنى الحقيقي الذي يُستعاذ بسببه من قهر الرجال، ولكن هل يستحق العمدة قهرًا كهذا؟

شعرت وكأن رأسها يغلي، هل تصمت وتتركها تخدعه، لترد صاعًا بصاعَين، أم أنه عليها أن تتصرف وفقَ ما يُمليه عليها ضميرها، ومن بعدها على الدنيا السلام.

تكوّمت في سريرها أكثر. كان الاختيار صعبًا جدًا، الكل يعرف الحل، وما يجب أن يكون، حتى يصير عليه أن يكون الفاعل، تجربة بدت لها مرعبة، ومقبضة، ومُحيرة، فهي لم تكن ستحتمل أن ترى على وجه غُمدتها ملامح قهرًا أو صدمة. أشفقت عليه من هول ما عرفت، لكن الاختيارات القاسية هي الأقرب للعقل، أما تلك المريحة فلا تقترب من المنطق ولا الصواب.

لم تقم من سريرها لأيام، حتى ظن مَن بالبيت أنها مريضة، لكنها لم تكن تقوى حتى على الشرح أو الحديث، أو المواجهة. لاذت بالصمت، واستسلمت لنظرات العطف حولها، لكن ما لم تقوَ عليه حقًا، نظرات الحزن الشديدة على وجه العمدة، ونظرات العطف المصطنع على وجه سعدية، التي كان مجرد اقترابها من سرير أنهار، يثير اشمئزازها ويجعلها تُدير وجهها سريعا كي لا تصطدم أعينهما ببعضهم البعض.

لكن ما ظلت تتحاشاه، وقع فجأة حين استيقظت فجأة على وَقْع أقدام. ساد صمت ثقيل، إلا منَ الدقات المنتظمة، حان وقت خروجها!

لكن سعدية، وبدلا من مغادرة المنزل، اتجهت نحو غرفة أنهار، شعرت بها الأخيرة، وهي تغلق المزلاج، فتعالت دقات قلبها، وشعرت أنها النهاية، خاصة حين اقتربت أنفاس سعدية من أنف أنهار، فتحت عينيها فرأت أن وجهيهما قد صارا متلاصقين تقريبا، وقبل أن تصرخ، كتمت سعدية فم ضرتها بيدها فانكتمت أنفاسها.

***

كان نهارًا باردًا، يُغري بالبقاء في دفء البيت؛ حيث الفرن يشيع أجواءً دافئة، والكانون ينتظر حلة سيادة العامرة بمحشي الكرنب، والباذنجان. نهار يُغري بفعل لا شيء سوى تناول طعام سيادة اللذيذ، لكن الفضول كان أقوى من لسعة البرد التي سرت في جسد داود، ومن إغراء الطعام، ومن خوفه الذي تملّك قلبه بشأن ما ينتظره، هناك أسفل السماء الملبدة بالغيوم.

«ثُرى هل لا تزال عوض تذهب إلى هناك كما اتفقنا؟ ماذا تقول عني الآن؟».

فكّر في الأمر بينما كان يركض، حتى وصل إلى موضع اللقاء المتفق عليه، نظر حوله، فلم يجد أحدًا، كان كل شيء كما هو، لكن البرد كان شديدًا جدًا، نظر داود للسماء، باحثًا

عن أثر لشمس يمكن أن تظهر في تلك اللحظة، ونزل بنظره نحو الباب، لعل شيئًا ما يتغير، لكن لم يكن هناك جديد. مرت ثلاث ساعات، لعبَ خلالها داود حتى أصابه الملل واليأس: «لن تأتي عوض اليوم». قالها متخذًا طريق العودة إلى المنزل، وحين ابتعد بمسافة كافية، نظر خلفه بيأس علّه يراها، لكنه لمحها من بعيد، تسير بهدوء نحو بيت توفيق، وتختفي خلف السور، هناك، عند البوابة الصغيرة التي أشارت لها في المرة السابقة. كاد قلبه يتوقف حين خطر له: «لقد دخلت عوض إلى هناك.. من دوني!».

همّ بالعودة، لكن الغيوم تكثفت أكثر، وراحت السماء تصطك ببعضها البعض، حتى انهال مطر غزير فجأة، كأن سيلًا قد شق طريقه في الحقل، فلم يدرِ داود، إلى أي الوجهتين يذهب؛ إلى عوض وتوفيق أم إلى سيادة! لكن الرياح الشديدة التي كادت تخلعه من مكانه، وملابسه التي غرقت بالمياه المنهمرة، لم تُمهله الوقت ليقرر، كافح كي يعود إلى المنزل، حيث راحت قدماه تغوصان في الوحل، بينما ملابسه تثقلها المياه المنهمرة، وحين اقترب، كانت سيادة تقف بالباب من الداخل، على وجهها أمارات قلق شديد، استقبلته مُحذرة أنه لو كان قد تأخر أكثر، لما مرّ الأمر بسلام، فوالده على وشك العودة بالتأكيد بعد هذا الانقلاب المفاجئ في الأجواء.

كان وجه داود يحمل ذهولًا، جعله يستغرق وقتًا قبل أن ينتبه أن ملابسه قد بللت أرضية المنزل، التي راحت سيادة تجففها سريعًا، حتى لا ينتبه أي من إخوته وأشقائه لها،

ثم منحته ملابس جافة، لكنه ظل واقفًا، لفترة، يحاول أن يستوعب إذا كان ما رآه حقيقيًا، كان عقله يخبره أن هذا كله وَهم بالتأكيد، وأنه ربما كان يتخيل، وإلا فأسوأ ما يمكن أن يقع له في الكون قد حدث. نجحت عوض في الدخول إلى منزل أحلامه، من دونه، ما هذا العبث؟ !

***

«ششش.. ماتخافيش».

كاد قلب أنهار يقفز من موضعه في تلك اللحظة، لفرط الرعب، لكن سعدية قالت لها بلهجة آمِرة، وحاسمة، إنه لن يُجدي الصراخ، وإن المسألة يمكن أن تنتهي بشكل أكثر لياقة، إن خفضت صوتها، وتحدثت بطريقة عاقلة.

«أنا عارفة إيه اللي تاعبك.. عارفة إنك جيتي ورايا».

اتسعت عينا أنهار لفرط بجاحتها، إلا أن سعدية أكملت حديثها بنبرة جادة جدًا، لم تكن تليق بها، كأن شخصا مختلفا كان يتحدث الآن:

«إنتِ فهمتِ إيه؟».

بدا سؤالها مستفزًا جدًا. فردت أنهار السؤال ذاته بوجهها: «فهمت إيه؟ أنا مش فاهمة ليه كده؟ الراجل أواكِ في بيته، وشالِك فوق راسه، وكتبك على اسمه، ما يستحقش تحطّي راسه في الوحل».

ضحكت سعدية بطريقة رقيعة، مقصودة تمامًا، وسألتها

بطريقة ذات مغزًى:

«إنتِ تعرفيه كويس؟ متأكدة من نفسك؟».

بدا السؤال، كالموقف بالكامل، مُرعب، وغير قابل للاستيعاب أو الفهم، أو حتى الإجابة. صمتت أنهار وهي تذكر كيف خذلها رجل حياتها، بامرأة مثل سعدية، وبفعلة كتلك التي قلبت رأسها على عقب. هي في الواقع لا تعرفه، ولا تقوى على الاعتراف بذلك حتى.

طال صمتها، فرمقتها سعدية بنظرة حادة، وقالت لها: «لو كان اللي عرفتيه عني جابلك المرض.. فاللي هقولهولك عنه ممكن يموتك!».

***

مرت الساعات ثقيلة، بينما تواصلت الأمطار حتى استحالت الطرق، بِركًا من الوحل. عاد جابر وأبناؤه إلى المنزل قبيل العصر، وأغلقوا الأبواب، حيث بدا المنزل دافئًا جدًا.

سارعت سيادة إلى وضع الطبلية في منتصف الدار، وفي دقائق صار فوقها أطباق شوربة ساخنة، ودجاج محمّر يلمع جلده المشدود، تحت أشعة شمس آخر النهار، تلك التي دخلت بصورة مائلة من النافذة المرتفعة، فتسلطت على الطبلية وما تحمله، وسرعان ما أكملت سيادة المشهد، حيث قامت بقلب حلة المحشي كاملة في الصينية الضخمة، فتعالى الدخان، بينما راحت ترش خلطتها الأثيرة من الملح والفلفل فوق الدجاج، فأكل الجوعى كما لم يأكلوا من قبل، حتى نسوا كل

شيء حول أمر الأمطار والبرد الشديد في الخارج، فقد تدبّر جابر قبل أيام أمر ثقوب السقف.

بدا داود شاردًا، فيما راح أشقاؤه يتبادلون النكات والحكايات، حتى أذّن المغرب، ومن بعده العشاء، كاد الجميع يئوون إلى فراشهم، حين دق بابهم.

تصاعدت دقات قلب داود، حيث شعر أن ثمة خطبا ما، وقد صدق حدسه فعلا، فقد كان القادم ابن عوض، ولم يكن قد زارهم من قبل؛ لذا بدت الدهشة على وجه الجميع، قبل أن يطرح الشاب عريض الكتفين سؤاله، إن كان أحد من أهل الدار قد رأى «عوض الصغير».

«ما لها البت؟!».

تساءل جابر، فأخبره شقيقها، أنها لم تظهر منذ صباح اليوم، ولم تعُد رغم الجو البارد، والأمطار العنيفة، وأنهم قد ظنوا أنها ربما لجأت إلى أحد منازل القرية احتماء من الأمطار، خاتمًا حديثه وهو يلهث: «أبويا وإخواتي بيدوّروا عليها».

لكن جابر نفى أن يكون رآها، وسأل الجميع في المنزل، إن كان أحد قد رآها، فنفى الجميع، بينما ظل داود صامتًا.

رحل الفتى، وتسارعت دقات قلب داود أكثر، حيث لم يدرِ إن كان عليه أن يحكي ما خُيل إليه أنه رأى أم لا، لكنه ابتلع لسانه، ربما يستطيع الوصول إليها في صباح اليوم التالي.

أطفأ جابر لمبات الجاز في أنحاء المنزل، إلا واحدة قام

بخفض إضاءتها حتى الحد الأدنى، وغط أشقاؤه في نوم عميق من أثر طعام سيادة اللذيذ، إلا داود.

استعصى عليه النوم، واستسلم لأفكاره المخيفة بشأن عوض، فلم يذر بخلَده أي أفكار طيبة، يمكن أن تتعلق بها، إن كانت بخير فلمَ لم تعُد؟ وإن لم تكن بخير فأين جثتها؟

استحال الفراش شوكًا أسفل جنبه، وشعر بنيران في صدره: «لو كان الوقت مناسبًا لذهبت إلى هناك الآن». خطر له الأمر لوهلة، لكن الظلام الحالك بالخارج، وأصوات المطر، مع الرعد والبرق، جعلا الفكرة مستحيلة، خاصة حين بدأت الأصوات تتعالى بالخارج: «يا عوض.. يا عوض».

غاص داود في سريره، وقد بات يعلم الآن، أن صديقته الوحيدة لم تعُد هناك، وهو عاجز حتى عن الخروج للبحث عنها. حتى تناهى إليه سؤال مرعب من سيادة لجابر، بينما كانت تُحكم الغطاء الثقيل فوق داود، مُعتقدة أنه قد نام بالفعل: «يمكن ماتت؟».

وقعت الكلمة على داود كالصفعة، لكن شعورا بالاطمئنان، بزغ فجأة داخله، صحيح أنهم يقولون إنها قد تكون ماتت، لكنه لم يشعر بتلك الغصة في قلبه كما سبق له أن شعر بها ثلاث مرات قبيل اختيار أمه وشقيقَيه.

كان داود في كل مرة يعلم أن مكروهًا قد لحق بهما، هذه المرة لا يشعر أن مكروهًا وقع، لكنه قال لنفسه بصوت مرتفع: «إنت مش وليّ يا داود عشان تعرف اللي حصل واللي ما

حصلش».

حاول أن ينام بكل الطرق، لكنه سرح في عالم آخر غالبته أفكاره المتعارضة؛ فهو من ناحية يتوقع أن تكون عوض قد غرقت في الوحل تحت المطر الذي لم يتوقف منذ الصباح، هو نفسه كاد يموت اليوم أثناء عودته، لولا عناية الله، لكن عقله أخبره: «ماذا لو كانت قد وصلت إلى توفيق بالفعل، ماذا لو كانت الآن بصحبته في آمان وسلام، تشعر بالدفء والراحة واللطف؟».

ساعدته تلك الفكرة بالذات على النوم، هدّأت من روعه، وصار يتنفس بصورة أفضل، فتسلل النوم إلى عينه أخيرًا..

في طريقهما إلى نقطة اللقاء، سألها داود: «تفتكري هيخلينا ندخل؟ لو يعرف باحبه قد إيه كان خدني في حضنه وخلاني أعيش معاه على طول»، لكن عوض، منحته نظرة بريئة بلا تعبير يُذكر، كعادتها، حتى وصلا أخيرًا إلى السور، تحديدًا عند البوابة الصغيرة التي أشارت لها عوض من قبل، لكن وقبل، أن يستقرا على الطريقة التي سوف تساعدهما على الدخول إلى هناك، هبّت عاصفة شديدة، مُحمّلة بأمطار عنيفة، لم تكن تُنبئ بها سماء الصباح الصافية. «هنروح إزاي يا عوض»، صرخ بها داود وهو يُمسك بشجرة كي يتفادى الوقوع حيث كانت الرياح أشد من احتماله في تلك البقعة الخالية إلا من منزل توفيق، لكن عوض كانت قد سقطت بالفعل في بِركة من المياه، التي باتت مُوحلة سريعًا، وكانت عاجزة عن الوقوف.

ظل الصغيران يُكافحان للنجاة، لكن المطر اشتد أكثر، وبرقت السماء ورعدت بعنف، ومر وقت قبل أن تهدأ الأحوال، كان داود يرتجف بشدة بينما كانت عوض شِبه فاقدة للوعي لفرط ما بها من وهَن وسوء تغذية، هكذا راح يجرها نحو تلك الحجيرة المهجورة قرب البيت، حيث أطلال عش قديم، مُتهدم لم يعد أحد يسكنه.

في الداخل كان الجو دافئًا جدًا، وخُيل لداود أن توفيق هناك، لم يكد داود يتبين شكله، حتى قدمت لهما يد ضخمة كوبَين من النعناع الأخضر الساخن المُحلّى بعسل النحل، كان ذلك الكوب هو الأجمل على الإطلاق في فم داود الذي لم ينتبه إلى مدى سخونته فراح يبتلعه كالسكران. «إنت صح؟ إنت الخال توفيق؟» إلا أن أحد لم يُجبه، كان المكان خاليًا إلا منه ومن عوض، التي أفاقت فجأة، حاولت الوقوف، لكنها كانت تترنح، قاومت، كأنها على موعد معه، كانت تمسك بيد داود، وتعتصرها، وهي تشير من بعيد إلى عربة تجرها الخيول، عرف داود أنه توفيق، ربما عاد من جديد هذه المرة ليأخذهما معًا.

عند الباب بالضبط، وقفت العربة، وانفتح الباب، ومدّ الرجل بالداخل، يديه للفتاة، كي تصعد، مشيرًا إلى موضع بالعربة فوقه صحفة طعام. كان الجو باردًا، لكن الطعام والموضع الذي جلست فيه كانا دافئين بطريقة محببة، ورغم أنه لم يدعُه إلى عربته، إلا أن داود اتخذ مكانه إلى جوار عوض من دون دعوة.

«عاملة إيه يا بنتي؟». قالها بينما راح يربت على كتفها، كان صوته يسري في روحها مسرى المياه في القنوات الجافة، لم تستطع كبح دموعها، حيث راحت تنتحب بشدة، وهي تنطق الاسم حتى باتت مَقاطِعه تتباعد، لم تعد تستطيع نطقه كاملا لفرط البكاء: «عوض».

احتضنها توفيق كي يُهدئ من روعها. حضن بدا غريبًا لها جدا، لم تعرف أن في الكون واحدا مثله، لم يتشنج جسدها ولا تصلب ظهرها خشية منه، شعرت داخل ذراعيه بأمان للمرة الأولى، ورحمة لم تعرف مثلها منذ كانت برحم أمها، أما داود الذي التصق به، فقد شعر أخيرا بدفء لم يعرف مثله منذ رحلت أمه، كان هذا الرجل يشع دفئًا وأمانًا، جعل الصغيرين يلتصقان به، ويبكيان طويلا، حتى تحدث توفيق، فهدأ الطفلان، لينصتا له، لكن أحدًا منهما لا يذكر على وجه التحديد ماذا قال، كل ما كانا يذكرانه، أنهما فجأة صارا من جديد، يجلسان على الأرض، قبالة البوابة الصغيرة، وفيما كان داود، ينظر للباب كالمسحور، لم تبرح عوض موضعها، كانا قد عقدا العزم على ألا يتحركا من تلك النقطة مرة أخرى، لم تحركهما معدتهما التي تقلصت مرات عدة لفرط الجوع ولا جسدها الذي راح يرتجف لفرط البرودة التي هبت مع نسمات المغرب، حتى صراصير الحقل وعواء الذئب في موضع بعيد لم يُخِفهما، كانا يستأنسان بالباب، الذي يجلسان قبالته القرفصاء حتى غطّا في نوم عميق، لم يوقظها إلا زخات مطر خفيف في الصباح، فاعتدلا في جلستهما وواصلا النظر إلى

الباب في انتظار تلك الانفراجة التي لم تحدث، كان الجوع يعتصر بطنهما في تلك اللحظة كذلك العطش جفّف حلقَيهما.

بزغ الفجر، واستيقظ داود على سريره، وكانت الدموع تبلل وجنتيه فعلا، وكذلك حلقه يكاد يتشقق لفرط الجفاف، لكنه كان يشعر بارتياح غريب، نحو الحلم الذي رآه للتو، بات يعلم الآن، يعلم ما يجب عليه فعله.

***

«الجن خطف البت»، بدا وَقْع الجملة غريبا على مسامع السيدات اللائي ذهبن إلى منزل حسنية من أجل مواساتها، ارتعدن من الفكرة، أن يخطف جِنيّ بشرًا. لماذا عوض بالذات؟ لماذا تلك الصغيرة مبتلاة منذ لحظة ولادتها؟ بدت الجملة مربكة أكثر حين تذكّر أهل القرية فجأة أن عوض كانت فتاة تحمل اسم ذكر.

«هو عمير مفيش غيره». قالها جابر بحسم مؤكدا أن ابنته بالتأكيد قد ذهبت إلى أبعاد لا يدركها البشر، وأن الأمر بحاجة إلى «شيخ» ليخبرهم بالخبر اليقين.

«بنتي فين يا ناس؟»، راحت حسنية ترددها، بينما كن جميعًا يتعاملن معها باعتبارها «عوض الممسوس»؛ لذا بدت كلمة «بنتي» من والدها ووالدتها غريبة بعض الشيء.

لم يكُف عوض عن التأكيد على أنها لم تعد في تعداد البشر، كان يبكي بحرقة وهو يؤكد: «خطفها الجن بعد ما عذبها وسوّد عيشتنا، وماعدناش هنشوفها تاني. أكيد موّتها، بنتي ماتت خلاص».

كانت تلك هي المرة الأولى التي يبكي فيها عوض أمام الناس بهذه الطريقة؛ ما جعل الجميع يتعاطفون معه بشدة، أما حسنية فلم تتوقف عن البكاء لحظة حين شعرت أنها لن ترى الصغيرة مرة أخرى.

«معذباني من يوم ما اتولدت، ومعذباني لحد ما رحلت، بتعمل فيّا كدا ليه؟». راحت تندب ابنتها وترثيها: «كان نفسي

أشوفك عروسة، كان نفسي أشوف عوضك»، لكن جُملتها لم تبدُ مؤثرة بأي شكل للجمع من حولها، بل إنها بدت خيالية حيث خطر لزوجة إسماعيل: «كيف يمكن لعوض أن تكون فتاة أصلا كي تصبح عروسًا؟ مَن المجنون الذي كان ليفكر في الزواج منها بأية حال؟ لا جسم ولا رسم!»، لكنها شعرت بالذنب من طريقة تفكيرها، فنفضت الأفكار وربتت على كتف حسنية.

كانت سعدية من بين الحضور، وقد شعرت بالتعاطف الشديد مع الفتاة التي لم ترها من قبل، يقولون إن اسمها عوض، وإنها تشبه الذكور كثيرا؛ لذا لم يكن تعاطفها بقدر ارتياحها حيث قالت في نفسها: «لم يفت حسنية الكثير، لكن الفراق صعب.. صعب جدًا».

انفضّ الجمع، مع حلول العشاء، ولم تسفر محاولات البحث عن شيء، لا فتاة ولا جثة، لكن مصير الصغيرة بدا معروفا مع كل اصطكاك للسماء، أي جسد هزيل قد ينجو في هذه الأجواء؟

لم تنم حسنية في تلك الليلة، هكذا بقيت مستيقظة لوقت طويل في السرير، وهي تشعر أن عوض بالتأكيد لم ينم: «البت راحت فين يا عوض؟»، راحت تسأل كالملسوعة، لكن عوض كان راغبا في النوم فراح يردد باستسلام تارة وملل تارة أخرى: «العلم عند اللي خلقها».

للمرة الأولى راودت حسنية مشاعر بدت لها غريبة ناحية

عوض الصغيرة: «هتقول إيه للي خلقها علينا يا عوض؟ لو ماتت هتقول إيه عننا، وهنعمل إيه من غيرها، الخير مادخلش دارنا غير لما جات.. كانت مبروكة مش ملبوسة يا عوض، وإنت عارف كويس»، لكنه استدار في تلك اللحظة، ونظر لها بعنف وقد ضيّق عينيه بشدة وسألها: «قصدك إيه؟».

«لا هِدمة حلوة ولا لقمة هنية ولا طبطبة، طول عمرنا نبهدلها وندبّ فيها، يمكن هربت يا عوض»، لكنه عاجلها: «بنتك ماتت يا حسنية.. خلاص، إن ماكانتش غرقت في الوحل هتلاقيها ماتت من البرد، يمكن ديب كالها ويمكن كلب نهشها، ماحدش عارف، أصل وراها أم مهملة».

«لو ماتت هارتاح، على الأقل هاعرف لها طريق، ولو عايشة ألحقها، مش عارفة أنام يا عوض وأنا مش لاقياها».

لكن عقلها انتفض فجأة حين خطر لها في حال ماتت ابنتها أين يمكن أن تدفنها في أرض بلا قبور؟ ربما في حفرة صغيرة، يسجيها والدها، ويهيل عليها التراب لتظل وحيدة للأبد! سيكون القبر الأول في القرية، ربما لن يسمح العمدة بذلك، ماذا سيفعلون بها إذًا؟».

كانت الحيرة شديدة على وجهها، لكن عوض نظر لها نظرة ذات معنى، وقال بلهجة مؤنبة: «نامي زي ما كنتي بتنامي كل يوم، اعتبريها على فرشتها المبلولة، يمكن موجودة ومش شايفينها، يمكن الجنيّ خفاها وشوية هيظهرها لنا تاني عشان ترجعي تحرقيها».

بدت فكرة إخفاء الجن لطفلتها مُريحة لحسنية، فقالت بصوت مرتفع: «ندر عليّا لو عايشة لاخليها أحلى البنات، وأعوضها. ژدهالي يا رب وهاحافظ على عطيتك».

كان عوض قد أعطاها ظهره في تلك اللحظة، حيث بدت له توسلاتها مضحكة، لكنه لم يكن قادرًا على النوم أيضا. كان الخوف قد تسلل إلى قلبه بشأن كل من المصيرَين: «ماذا لو كانت حية، وماذا لو كانت ميتة!»، كان عوض يتمنى من أعماق قلبه أن تكون عوض الصغيرة في عِداد الأموات. «وجودها فضيحة، ورجوعها بعد الغياب أفضح». قالها لنفسه بصوت خفيض قبل أن يتمكّن النومُ منه.

***

كانت النافذة تشع ظلامًا وبرودة، لم يفلح المزلاج الكبير في إحكام إغلاق الشيش، فبدا مواربًا، يتسرب منه هواء بارد وعواء كلاب لم تتوقف طوال الليل عن إطلاقه في الأنحاء، يقولون في قرية المائة إن عواء الكلاب ينذر بقرب ظهور مختار، لكنها ظلت مجرد اعتقاد مكتوم في الصدور، لكن عواء الكلاب في تلك اللحظة، زاد من شعور أنهار بالهلع، حين شعرت بسعدية تجثم فوق قلبها.

ألصقت سعدية مجموعة من الأوراق بوجه أنهار وسألتها بصوت كالفحيح: «عارفة إيه ده يا أنهار؟».

لم تكن أنهار تُجيد القراءة، فأجابت بحسم: لأ.

«دي كشوف المختارين.. شايفة آخر اسم ده. اسمك يا

أنهار».

لم تفهم أنهار ما قالته سعدية، فكررته الأخيرة بصوت أكثر حدة وغضب: «العمدة هيغدر بيكي يا أنهار، إنتِ الجاية على طول، هيطلعك عشان يخلّى له الجو معايا».

عند تلك اللحظة تصببت أنهار عرقًا، وشعرت بأنفاسها تغادرها قبل أن تفقد الوعي فعلا، لكن سعدية لم تدعها تغيب.

استلزم الأمر كميات من عِطر سعدية الثقيل، ومحتوى قلة من الماء، حتى استعادت وعيها، فهزتها سعدية بعنف، وهي تقول: «فوقي بقى، واتغدي بيه قبل ما يتعشّى بيكي».

لكن أنهار التي كانت تشبه الخرقة القديمة في تلك اللحظة، كانت مشوشة جدًا لدرجة تساوت معها، كلّ من النوايا الطيبة، والخبيثة للعمدة، لكن سعدية أمسكت ذقنها، ورفعت رأسها لأعلى وأخبرتها ببطء وتركيز: «اللي جاي بتاعنا يا أنهار».

***

وصلت الأنباء إلى حرس العمدة، الذين أبلغوه بدورهم عن طفلة صغيرة مفقودة، تُدعى عوض، لكنه تساءل بجدية:

«عوض مين؟».

فأجابوه: «بنت عوض».

ارتسمت علامات الدهشة على وجهه؛ حيث بدا له الأمر مُلغزًا أكثر: «اسمها عوض.. وبنت عوض؟».

فأجابه أحد الحراس: «أصل أبوها بيكره خِلفة البنات».

«ودِي شكلها عامل إزاي؟».

«عَيلة ماكمّلتش الـ٥ سنين.. بس شكلها وهيئتها دَكّر.. عوض وهي عوض».

«٥ سنين!».

كانت أنهار تجلس في أحد أركان المنزل، لكنها لم تبدُ مهتمة بالحديث الذي تناهى إلى سمعها، أما سعدية، فقد أبدت تفاعلا كبيرا مع ما يُقال، حيث راحت تطرح المزيد من الأسئلة على الحارس، عن عدد أشقاء عوض، والمرة الأخيرة التي ظهرت فيها، والاحتمالات التي تحيط باختفائها، وإذا ما كانت مريضة أو لا، فيما كان العمدة يجلس منصتًا للإجابات، حتى انتهى، فصرفه، وبقية الحراس، بينما خيم صمت ثقيل على المنزل، لم يقطعه سوى العمدة الذي توجه بحديثه إلى أنهار، المنهمكة في شيء ما لم يكن واضحًا لهما.

«رأيك نتصرف إزاي يا أنهار؟ فِكرك البت ممكن تكون فين؟».

إلا أن أنهار غابت طويلا قبل أن ترد بنبرة غير مبالية وبطريقة، بدت للعمدة، مستفزة:

«الله أعلم».

«هو إنتِ مش حاسة بالمصيبة اللي إحنا فيها؟».

لكنها رمقته وسعدية بنظرة نارية، واقتربت منهما، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تقف فيها قبالتهما: «ما أكتر المصايب!».

ثم منحتهما ظهرها، وتوجهت إلى غرفتها من جديد، فيما نظر الاثنان إلى بعضهما البعض، وتوجها بدوريهما إلى غرفتهما، وأغلقا الباب بإحكام.

«إيه العمل دلوقتي؟»، قالتها سعدية وقد اتسعت عيناها وبدا الكردان الذهبي العريض في صدرها لامعا أكثر من أي وقت مضى، فاختطف عين العمدة الذي كان غارقا في أفكاره، قبل أن يفكر بصوت مرتفع قائلا: «ما هو إحنا لازم نفهم قبل فوات الأوان، لو ماتت نتصرف ولو عايشة نطمن. إحنا مش حِمل اللي ممكن يحصل لو البت دي ماتت فعلا».

«يمكن خرجت برا أرض البلد».

«ما يمكنش».

«إشمعنى؟!».

نظر لها بطريقة أوحت لها أنها قد تخطت حدودها في الحديث، ثم استطرد:

«أنا بعَت الغفر يدوّروا عليها، وبعت أجيب دليل يشوف أترها ويقولنا راحت فين». قالها العمدة ثم أردف كأنه بلا حيلة: «أعمل إيه تاني؟».

كانت سعدية على وشك طرح مزيد من الأسئلة، لكن

فضولها الشديد، كان يزعجه؛ لذا أدار لها ظهره، متظاهرًا بالرغبة في النوم، لكنه في الواقع، كان يعاني بشدة، تقلصت معدته أكثر مع كل فكرة جديدة، كانت تخطر له، وراح عقله يُجري الحسابات بشأن الاحتمالات جميعا، لن تلد امرأة خلال الثلاثين يومًا المتبقية أو حتى بعدها. ليس هناك أرامل يمكن أن يزوجهم قريبًا من خارج القرية، الوضع مُزرٍ والرقم أصبح ٩٩ إن كانت الصغيرة ماتت فعلا.

ابتلع ريقه حين تذكر أن الأسوأ من هذا كله، هو ظن أهل القرية أن عمدتهم يعلم على وجه التأكيد أين هي الفتاة، فعمدة المائة، وحده مَن يعلم، إن كانوا مائة أم ٩٩، يتوقع منه أهل القرية أن يخبرهم، على وجه اليقين، هل الصغيرة على قيد الحياة، أم أنها رحلت؟

«إنت هتنام وتسيبني أقعد لوحدي؟».

قالتها سعدية بنبرة ذات معنى، إلا أنه لم يمنحها ردًا، حيث راح يطمئن نفسه:

«في أسوأ الأحوال هاجيب غفير جديد ما سبقش له الجواز ومع أقرب موتة نجوّزه، أو نجيبه عجوز مافيهوش رجا خلينا زي ما إحنا، سهلة إن شاء الله مش هتفرط مني بس أعرف راحت فين».

كاد أن ينام مع شعوره أخيرا بالاطمئنان إلى أن كل شيء سيكون ـ بالضرورة ـ على ما يرام، لكن شيئًا ما في أعماقه هتف بشيء أوجع معدته أكثر: «وافرض ظهرت بعد لما

نجيبه؟ نبقى ١٠١ وندخل في المحظور؟ البت دي لازم تظهر بأي تمن، عشان نتصرف على نور، وأنا أول واحد لازم يلاقيها».

كان في تلك اللحظة، على وشك أن يقيء، لكنه أرغم نفسه على إغلاق عينيه، والنوم فورًا، ثم شعر أن شيئا ما يسحبه لأسفل، ليس نومًا، ولكنه غرق.

الكثير من الوجوه القبيحة، المتحللة، كانت تحدق بوجهه، رائحة لا تطاق، كادت أنفاسه أن تتوقف، وهو يكافح كي يفتح عينيه: «هذا كابوس بالتأكيد يجب أن أستيقظ». إلا أنه ظل عاجزا عن الهرب، أو الحركة، أو حتى الصراخ، فلم ينقذه سوى هزات عنيفة، كانت سعدية تهزها له، كي يستيقظ، متسائلة: «إنت مكوبس ولّا إيه؟».

كان يتصبّب عرقًا، وهو يطلب إليها بصوت مهتز: «كوباية مية والنبي».

صبتها له على الفور، ومنحتها له، وهي تنظر في عينَي رجل لا يعلم على وجه التحديد «ما العمل».

***

كان أكثر ما يكره الانتظار، مرور الوقت بلا جدوى، كأن رحا جرن الدار، يسحقه كحبات الطحين، مع كل دقيقة تمر، كان قلبه يتفتت لفرط الغضب والشعور بأنه مقيد، لا يمكنه التحرك بأي شكل قبل أن يستيقظ أهل البيت جميعا، ويبدءوا حياتهم هم، ثم تبدأ حياته هو من بعدهم.

لم يكد والده يخرج إلى الحقل، مع أشقائه حتى سارع إلى الخروج، من دون استئذان سيادة، وانطلق صوب منزل توفيق، يعوقه الوحل عن التقدم، وتؤرقه الزخات الخفيفة، لكنه قاوم حتى وصل إلى هناك. كان الوحيد الذي يعلم حقا مكان عوض؛ لذا سارع لعلها تكون بعدُ على قيد الحياة.

حين وصل، لم يكن ثمة أثر لعوض، فراح ينادي بصوت خفيض، باسمها، لكنه لم يلقَ إجابة، ولم يرغب في أن يكون متعجلا، هكذا اختار حجرًا بعيدًا عن الأوحال، وجلس القرفصاء أمام البوابة السحرية الصغيرة، علها تنفتح من تلقاء نفسها، لتوفر عليه، ساد صمت ثقيل، كان داود يكتم أنفاسه أكثر الوقت، كي يتمكن من سماع أي صوت يمكن أن يصدر من الداخل، لكنه بقي منذ الفجر وحتى الظهيرة جالسًا في الموضع ذاته، دون جديد، حتى تقلصت معدته بفعل الجوع، لم يرغب في الرحيل، ولم يدرِ ما العمل، هل يخبرهم بمكانها، أم ينتظر وقتًا أطول لعلها تظهر. «ربما لم تدخل من الأصل، ربما هي في مكان آخر، وربما هي الآن بالداخل بصحبة توفيق وحدها، ما الحقيقة وما العمل؟».

كانت فكرة اختفاء عوض تؤلم معدته، غالبه البكاء وهو ينظر إلى ذلك الموضع، في ذلك التوقيت، وبعد أن صار يتشارك هدفا جديدا، وصديقة جديدة، يضيع كل شيء، في نفس المكان، الذي ابتلع من قبل كل مَن أحب، ازدادت حدة بكائه حين أدرك أن عوض ضاعت لأنها استجابت له، وأطاعته، في جموحه، وأفكاره. تخيلها في ذلك اليوم، وهي

تسارع بالخروج من بيتها، صوب نقطة اللقاء وفي قلبها أمل بشأن أمر جديد قد تُحرزه بصحبة داود: «لو أني غدت يومها، ولم أستسلم للمطر، لو أني سعيت وراء صديقتي كما سعت هي ورائي.. إنني جبان ضعيف».

مر نهار اليوم الثاني سريعا، واقترب المغرب، وصار على داود أن يعود، كان يشعر أن التحرك من ذلك الموضع، خيانة، لكنه، ورغم كل شيء تحرك، نحو منزله، كان جائعا جدا رغم الحزن الشديد، لكنه كان بحاجة لأن يكمل محاولات العثور عليها؛ لذا تناول القليل من الطعام ثم انقلب نائمًا، علّه يراها هناك، ربما أرسلت إليه إشارة في حلم، دلّه على طريقة الوصول إليها.

في الحلم رآها، تنظر حولها بضيق، في انتظاره، كان يناديها، لكنها لا تسمعه. ظل يصرخ، لكن صوته لم يخرج من حلقه، فانفطر قلبه وراح يبكي، كانت ذابلة، وحائرة جدًا، كان يكافح كي يدعها ترى أنه لم يتخلّ عنها، لكن قوى الصغيرة كانت قد خارت تمامًا، ولم يبدُ أنها تنوي الرحيل من موضعها داخل البيت؛ ليس لأنها لا تريد الرحيل فحسب، ولكن لأنها لم تعد تقوى على ذلك أيضا.

كانت عوض تجلس قبالة الباب الخفي الصغير، من الجهة الأخرى، داخل المنزل. ظلت تقاوم، لكن تلك المرة كان جسدها النحيل الذابل قد تخلى عنها، هوت على جانبها، حيث تجلس، وتجاسرت على فتح عينيها، لتنظر من جديد إلى الباب، كأن ذلك يشعرها بارتياح أنها وصلت بيتها أخيرًا.

عند تلك اللحظة، شعر داود، أنه قد توحّد مع عوض، وصار يشعر بما تشعر به بالضبط، يشعر تماما كيف استسلمت الصغيرة لتلك الخفة التي شعرت بها، تجذبها من الأعماق إلى أبعاد لا تدري عنها شيئا، فيما استجمعت قواها لتفتح عينيها ربما لمرة أخيرة تنظر إلى الباب الذي هالها أن تراه ينفتح شيئا فشيئا، لم تكن تدري إن كان هذا حلمًا أم حقيقة، لكن الأمور في تلك اللحظة كانت قد تساوت بالنسبة لها، حتى إنها بدأت تهذي، أو ربما كان هو مَن يهذي.

ساد صمت ثقيل، تنعدم خلاله الأنفاس، ويبدو خلاله الموت والحياة، سيان، لكن الصغيرين سقطا فجأة، إلى أسفل وبسرعة عظيمة، كمَن يهوي من أعلى الشجرة لأسفلها، تيقن داود في تلك اللحظة، أنه الموت، لم يكن ينتظر، سوى صوت ارتطام جسده بالقاع، وتهشمه وصديقته التي عانت هذا كله بسببه، لكنهما فجأة، وصلا إلى غرفة خالية، لم يكن فيها سواهما، واستردت عوض وعيها بالكامل فيما عاد التوازن إلى رأس داود.

لم يكن أحدهما يُحدث الآخر بالكلمات، فعوض التي لا تتحدث، صارت فجأة تجيد التخاطر، هكذا تنظر إلى داود، فتخبره بكل ما تريد دون كلمة. «هل هو توفيق.. هل نراه الآن؟».

عند تلك اللحظة، تلوّث قلب داود فجأة بالشك، لم يذز بخلَده سوى تساؤل واحد: «معقول توفيق يطلع شريرة؟»،

لكن التساؤل البريء استحال سؤالا أكثر رعبًا بالنسبة له: «هو توفيق موجود أصلا؟ طب ليه ماشوفناهوش لحد دلوقتي؟».

لم تكن عوض تُصغي. توجهت تلقائيا إلى الحصيرة المُلقاة على أرضية الغرفة حيث غطت في نوم عميق، فيما تَواصَل المطر الغزير بالخارج فوضع داود رأسه على وسادة بالأرض، لكن مياه المطر كانت تُغرق كل شيء، حتى إنها أغرقت الغرفة، التي ينام بها.

استيقظ داود، وكانت تلك هي المرة الأولى منذ وفاة أمه، التي يبول فيها على نفسه، وقد كان إحراجه شديدًا، وخوفه من القادم أشد.

***

كانت صينية الطعام أمامهما، لكن أيًّا من الفطير الساخن اللامع من أثر الزبد، أو العسل والجبن لم يُغرِ العمدة بتناول الطعام، لكن بدا أن شهية سعدية قوية، هكذا غمست قطعة كبيرة من الفطير في العسل الأبيض ومن بعده القشطة، ودستها في فمها بتلذذ، وراحت تلوكها قبل أن تهتف فجأة، وقد امتلأ فمها:

«فِكرك ماتت بجد؟».

لكن العمدة الذي كان ظهره متشنجا بفعل البرد والقلق، رد بصوت خفيض كأنما يُحدث نفسه: «لو ماتت كان ظهر لها جِتة».

لكن سعدية التي كانت تحب الخلط بين المالح والحلو، كانت في هذه اللحظة، تغمس قطعة فطير محمرة الوجه في طبق الجبنة القديمة وتضعها في فمها وتمصمص أصابعها، قبل أن تواصل حديثها، بالطريقة ذاتها: «بس دول يومين.. هتكون راحت فين؟».

رمقها العمدة بنظرة متململة وقال: «عشان كدا باقولك لو ماتت كنا عرفنا، البت دي وراها مصيبة».

«مش هتاكل طيب؟».

كانت حالة من القلق الشديد قد استبدت بالعمدة، أما سعدية فقد أصابها السأم من كل هذا التوتر، كانت تعرف أنه لن يأكل، ولن يقترب منها لليوم الذي لم تعد تحصيه، اعتاد أن يقيء في الأيام الأخيرة، وقد تبدّل حاله من الصحة إلى الإعياء. كانت سعدية تحمل في قلبها سأمًا شديدًا، لكنها قاومت كي تبدو زوجة صالحة، فهذا هو دورها في أيام كتلك، كانت تحاول أن تبقيه صامدًا حتى تنجلي الأزمة، لكن البقاء في منزل يختار أهله النوم أكثر الوقت، هربا من الواقع لم تكن مسألة محتملة لها، وبين أنهار النائمة بإرادتها والعمدة النائم بإرادته لم يكن النوم يواتي سعدية التي كان يشغلها أمر مختلف تمامًا، فعلى الرغم مما أخبرته لأنهار، إلا أن الأخيرة كانت تُبدي رد فعل غير مفهوم لها، أقرب للامبالاة؛ ما جعلها تفكر: «هل هو غباء أم برود؟». تناولت قطعة فطير مغموسة في العسل الأسود والطحينة، ثم راحت تتساءل: «هل لاحظت أنهار يومًا شيئًا مما يحدث حولها أصلًا، أم أنها

مغفلة منذ لحظة ولادتها؟».

لم يكد العمدة يمنحها ظهره حتى رمقته بنظرة نارية، كادت تخترق ظهره، تنهّدت تنهيدة عميقة قبل أن تواصل تناول طعامها، وهي تقول من دون صوت: «اللي ييجي منك أحسن منك».

كانت الأحداث الأخيرة قد أخرجت سعدية من سكرة المتعة إلى جفاء الواقع، حيث اكتشفت فجأة كم هو ممل بيت العمدة، وكل ما يتعلق به من تفاصيل، حتى سريرها الوثير بدا لها مملا للغاية، وقد صارت تعلَم أخيرا أن حياتها بصحبة هذا الرجل قد اقتربت من نهايتها، إلا أنها لم تتوقف عن التفكير فيما حولها. كل تلك الأساطير التي سمعتها على لسان نساء القرية، عن توفيق وعثمان الكبير، والعمدة، والعدد مائة، بدا غريبًا بالنسبة لها.

للحظة شعرت سعدية أن اصطحاب أنهار إلى موضع الأسرار ليس قرارًا صائبًا، فتخاذلها وملامح وجهها لا تشي بامرأة تريد أن تعرف شيئا: «لكنها يجب أن تعرف كل شيء.. سوف يغير هذا كل شيء.. إن تحدثت تلك المرأة فسوف ينتهي الكابوس»، هكذا عزمت على اصطحابها وليكُن ما يكون.

***

«داود ما رجعش يا جابر».

«مين سَمح له يخرج؟!».

«أنا».

«إنتِ يا سيادة!».

«أيوة يا جابر.. هتفضل دافنه لإمتى.. عمايلك في حقه ومعاملتك ليه أسوأ من الموت، فِكرك كده بتحافظ على حياته؟!».

«إيه الكلام ده؟».

«ده الكلام اللي لازم تسمعه كويس أوي، محدش هيقولهولك غيري... أنت بتفرط في الأمانة، والمصيبة إنك فاهم إنك محافظ عليها وبتحابي وتستر. ابنك ماهوش فضيحة ولا عار... فوق يا جابر، أنت غلبت في البلد دي، وبتطلع غُلبك في الغلبان.. أهو هرب».

«عشان دي غلطتِك.. إنتِ اللي فرطتِ في الأمانة».

«داود مش بهيمة ولا حمار تربطه وتلاقيه محل ما سيبته.. ابنك بني آدم محبوس بره وجوه، في بلده، وفي بيته، وفي سريره!».

«لو ابني مارجعش سَليم، تبقي طالق مني يا سيادة».

ابتسمت سيادة، كأنما وصلت لنقطة منتظَرة: «ابنك أشجع منك يا جابر. ما تخافش عليه.. خاف على نفسك أولى».

***

في منتصف الطريق بين منزل العمدة والنيل، كانت سعدية

تجدّ السير مُمسكة بيد أنهار التي بدت خطواتها ثقيلة، كأنما تُساق سوقًا نحو حتفها:

«هِمّي شوية يا أنهار».

كانت سعدية تلهث بينما تُجيبها أنهار بنفاد صبر: «لو أعرف بس وخداني على فين!».

«يا خبر بفلوس...!».

حين وصلتا إلى تلك النقطة على الشاطئ، كان صوت الضفادع يتعالى في الأرجاء، فيما قفز صرصور نيل على قدم سعدية، أفزعها، بأقدامه العديدة التي غطت قدميها، ركلته بعيدًا، وكتمت صرخة بيديها، خشية أن يفتضح أمرهما، فيما تعالت دقات قلبها، لكن أنهار باغتتها: «هو إحنا مستنيين إيه؟».

هنا ابتلعت سعدية ريقها، وأخذت نفسًا عميقا كي تُهدئ دقات قلبها، قبل أن تمسك بيد ضرتها، وتسألها بجدية: «عمرك سألتي نفسك المختارين بيحصلهم إيه؟».

فأجابتها من دون تفكير: «غُمري».

«أنا بقى سألت.. واتعلمت إن اللي يحب العسل لازم يمد إيده وسط النحل».

لم تفهم أنهار ما تعنيه سعدية؛ لذا استكملت الأخيرة حديثها بنبرة ذات معنى: «اللي يحب يعرف السر لازم يروح لمنبعه، كان لازم أدخل بيت توفيق».

اتسعت عينا أنهار، وبدا أنها فقدت أنفاسها لهوانٍ قبل أن تشهق شهقة قوية، أسقطت عنها كل اللامبالاة التي كانت تتلبسها: «بتخونيه مع توفيق؟!».

***

لم تعِش قرية المائة أجواءً مرعبة كتلك من قبل، كان الناس في كل مكان يعلمون أن أمرًا ما جلل سوف يحدث قريبًا، لكن ما هو؟ ولماذا تشاركوا جميعا الهواجس ذاتها؟ كان هذا هو أغرب ما في الأمر، إلا أن أحدًا لم يتجرأ على الإفصاح عما يشعر به، تحت السماء الملبدة بالغيوم، كان الوجوم يُخيم على وجوه الجميع، بينما سؤال واحد يراود العقول: هل لا يزالون مائة وعوض الصغيرة حية، أم أنها ماتت وصاروا ٩٩؟

للحقائق روائح، لو أنها ماتت لشمّ أحدهم رائحتها في مكان ما، ولو أنها حية لعادت بعد كل هذا الوقت، هكذا تصارعت الاحتمالات في الرءوس بينما ظل السؤال: أين عوض!

هَمّ آخر ظل مكتومًا في منزل جابر، حين لم يعُد داود، مع المغرب، كاد الرجل ينطلق وأشقاؤه للبحث عنه، لكنّ صمتًا عميقا تملّكه، مانعًا الجميع من الخروج بحثا عنه: «هيرجع»، قالها بثقة بينما كان قلبه عامرًا بالشك في مصير ابنه، يشبه مصير عوض المجهول، لكن جابر الذي كان يكره الضجة، لم يرغب أن يصير بدوره حديث القرية؛ لذا كتمَ همّه، ومكثَ في بيته، بانتظار ابنه، وسط نظرات اتهام وغضب الجميع.

لم ينم بيت جابر، في تلك الليلة؛ لذا حين عاد داود إلى

البيت، قُرب الفجر، تخطّفه الجميع فرحًا وغضبًا، وبين لَكمات وقُبلات، لم ينبس الصغير ببنت شفة، إلا أن سعادة خفية تملّكت الجميع، فهدأت النيران المشتعلة في صدرَي سيادة وجابر؛ لذا تركا داود ينام، من دون سؤال واحد عن مكانه أو سبب تأخيره.

***

كان الهواء شديدًا، لكن حمار المنادي قاوم، ليسير وسط أراضي القرية المبللة، فيما راح راكبه يجتهد ليُخرج أعلى طبقة صوت ممكنة، يمكنها تخطي زخات المطر الخفيفة، والأجواء غير المواتية: «يا أهل البلد، الحاضر يعلن الغايب، العمدة بيبلغكم، هيقولكم كلمة بعد صلاة الضهر، الكل لازم يكون موجود، كبير وصغير، بعيد وقريب، الكل يحضر عند الجامع الكبير».

لم يكد المنادي يؤذن في القرية بمراد العمدة، حتى سرت همهمات، وانطلقت تأويلات، فيما كان هناك ما يشبه الإجماع أن الأمر بالضرورة يتعلق بمصير عوض الصغيرة، تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها أهل القرية أمرًا كهذا؛ لذا شعر الجميع أنهم بصدد قصة كبرى، وما بين ثقل الانتظار، ونيران الفضول، قضى أهل القرية الساعات الباقية في انتظار الكلمة التي ينوي عمدتهم قولها لهم.

لم يكن الرجل مرتاحًا للفكرة، لكنها كانت أفضل ما سمعه من سعدية، وأمّنت عليه أنهار التي تحدثت لأول مرة بشكل طبيعي منذ أيام طويلة. صحيح أنها لم تخطر له ببال، لكن سعدية كانت متحمسة جدًا وهي تخبره: «قولهم إن عوض مختارة، وطلعت خلاص، وإن توفيق جاب الناهية في قصتها، وبلغك، لا تقول ماتت ولا مش لاقيها، لازم تملك زمام البلد وإلا هتفرط منك».

«وافرضي ظهرت؟».

«دي بقى شغلة رجالتك الأيام الجاية، يقبوا ويغطسوا ويجيبولك خبرها، المهم تكسب وقت وتخلّص القصة دي اللي سوّدت عيشتك ووقّفت حالك». قالت تلك الأخيرة بنبرة بدت ذات معنى، فتنحنح العمدة، وأمّن على رأي سعدية وأمّنت معهما أنهار أن ذلك هو الحل بكل تأكيد.

فيما راح هو يؤكد لنفسه بصوت مرتفع: «لا يمكن تكون عايشة فعلا، إنتِ عندك حق يا سعدية، والقصة السودة دي لازم لها نهاية.. كفاية وجع بطن».

في تلك اللحظة كان كثيرون قد تجمعوا ببيت عوض وحسنية، ظنًّا منهم أن أحد منهما يعلم شيئا ما عن مصير الصغيرة، أو ما يمكن أن يقال عند صلاة الظهر، لكن حسنية التي راحت تلطم خدودها وتضرب صدرها، لم يبدُ أنها تعلم شيئا أكيدًا، اللهم إلا فكرة كتلك التي خطرت للجميع أن عوض لن تعود مرة أخرى؛ لهذا لاحظ الجميع أن لطمها بدا هذه المرة أصدق وأقوى.

***

على شاطئ النهر، حين وقفت أنهار بصحبة سعدية، لم يكن يشغل بالها سوى ذلك الحلم الذي تكرر كثيرا في الأيام السابقة، كأنما لا تزال داخله، كانت تسير كالمخدرة، تشعر بذات الشعور القاهر، كأن الواقع امتداد للحلم، والحلم امتداد للواقع، تداخل كل شيء، فصار لا شيء حقيقيًا وكلٌ شيء حقيقيًا في الوقت ذاته.

في الحلم كانت أسنانها تقع دفعة واحدة، وهي تعلم أن سقوط الأسنان يعني فَقْد الأحباء، ولكن مَن يمكن أن تفقد سواه، ذلك الرجل الذي جلب سعدية إلى قلب بيتها، كان قلبها يرتجف كلما حاولت أن تفكر في الأمر لتستوعبه: «هل يمكن أن يحدث مكروه للعمدة؟ هل يمكن أن يفكر رجُلي في أمر كذلك الذي ذكرته سعدية؟ هل كنت التالية حقًّا على القائمة؟».

ثمة أمور لا يستوعبها العقل. هكذا يصل إلى نقطة بعينها، فيعود من البداية ليفكر من جديد في الأمر، كأنما يرغب في نهاية مختلفة، أو نتيجة غير تلك التي وصل إليها في المرة السابقة، لكن المقدمات ذاتها تقود إلى نفس النتائج، هكذا يظل العقل يعمل بلا توقف: «هل أنا غبية ومغفلة بهذا القدر؟ أم أنني ساذجة؟ ربما أنا امرأة ظالمة!».

لم يكن شيء يريح أنهار بقدر اعتقادها أنها ظالمة في قصتها، هي ظالمة لأنها قصرت في حق الرجل، لم تُنجب له، ولم تمنحه المتعة الكافية، وهي ظالمة بالتأكيد لأنها استمعت وطاوعت امرأة كسعدية تأخذها للمجهول، وهي ظالمة أيضا لنفسها، أن سمحت لهذا كله أن يحدث لها!

لم يخرجها من أفكارها، وهي واقفة على الشاطئ، أي من البرد الشديد في ليل قرية المائة، ولا كل تلك الأشياء التي كانت تتحرك بلا توقف على الأرض، ولا حتى جلبابها، فقط صوت المجدافين القادمين من بعيد هما ما لفتا نظرها.

إلى جوارها لم تكن سعدية تدري إن كان ما تفعله صوابًا أم خطأ، لكن ما كانت تعرفه أن الأمور تكون على ما يرام فقط حين تكون «على عينك يا تاجر»، هكذا قررت أن تأخذ تلك المرأة الغائبة عن الواقع إلى حيث يجب أن تذهب، وبينما كان شيئا ما في داخلها يخبرها أن ما تفعله في تلك اللحظة تسرّع منها، نتائجه مجهولة، إلا أنها كانت ترغب في تحريك الأمور، فأكثر ما تكرهه سعدية الركود، واستمرار الأمور على ما هي عليه لوقت طويل، هكذا قالت بصوت مرتفع: «لو صح أديني عملته، ولو غلط فاللي حصل حصل واللي يجرى هيكون!».

كان القارب يحمل رجلا لا يبدو وجهه غريبا لأنهار، سرعان ما تعرفت إليه؛ هذا هو الغفير الذي استقدمه العمدة حين استقدم أنهار، ما إن اقترب حتى قفزت سعدية إلى القارب، وساعدت أنهار في القفز بدورها، وكانت تلك الخطوة هي الأصعب، وما إن استقرت أخيرا في القارب، حتى قدمت سعدية الرجل إلى أنهار: «السيد؛ أخويا في الرضاعة، من مرات أبويا، أول مرة أقول لحد هو مين»، في نفس اللحظة، هتف الغفير لأنهار: «إزيك يا ست».

كانت مفاجأة بالنسبة لأنهار، حيث ظنت للوهلة الأولى، أن هذا هو غريم زوجها؛ لذا ردت من دون حماس: «الحمد لله»، لكن ما إن علمت درجة قرابته لسعدية، حتى عاودتها فكرتها الأولى: «إذًا الغريم هو توفيق».

هتفت سعدية، موجّهة حديثها له: «جاهز؟».

فهتف السيد بحماس شديد: «طبعًا.. ده بكرة اليوم الكبير، مش خايفة؟».

نظرت له سعدية، فانعكس ضوء المصباح الصغير على وجهها، دون أن تنطق، فابتسم بثقة، بينما واصل التجديف: «هانت».

لحظات من الصمت مرت، قبل أن يستعيد كلاهما في ذهنه كلّ تلك اللحظات التي بقيا فيها من دون طعام، من بلد لأخرى، ومن كرب لضيق، تعلّما معًا أن مَن يجوع جدًا، يموت قلبه قبل أن يتقن الطريقة التي تؤكل بها الكتف، كل تلك الطرق التي حملتهما، من بلد لأخرى، علمتهما أنه ليس لأحدهما سوى الآخر، وأنه لا مستقر ولا مستودع، تتقاطع مصائرهما دائمًا، كأنما ولدَهما البطن ذاته في اللحظة ذاتها، رجلها الذي يتوارى في الظلال، يبدأ معها الرحلة من جديد في كل مرة، لكن الأمر بدا لكليهما جلَلًا حقا، هذه المرة.

لم تفهم أنهار قصد أي منهما، ولا المغزى من تلك النظرات المتبادلة. اليوم المقصود، هو يوم يخطب العمدة في الناس، لكن يبدو من هذا الحديث أن لسعدية خطة أخرى: «ما هي؟!».

حاولت أنهار أن تدّعي عدم الفهم، فتساءلت ببلاهة حول ما يقصدانه، فردت سعدية بصوت أقرب للفحيح: «يوم الخلاص».

كان القارب قد رسا بالفعل، قرب البوابة الغارقة في الظلام،

أوثق السيد القارب، ثم تسلق الأحجار، آخذًا بيد السيدتين، اللتين تعثرت كل منهما في ذيل جلبابها، قبل أن تستقر أقدامهما وصولا إلى البوابة القديمة حيث دلفتا إلى الداخل.

كانت أشجار الجهنمية تُزين المدخل على امتداده، وصولا إلى غرفة لها باب قديم، جاهدت سعدية لفتح مزلاجه الذي بدا صدئًا قبل أن تخاطب أنهار التي بدت مذهولة وخائفة: «بقالي شهور بحاول أفهم قصته.. إزاي عايشة مع الداهية ده طول العمر اللي فات من غير ما تحاولي تفهمي.. يا صبرك!».

كان المزلاج قد تحرك أخيرا، فانفتح الباب الثقيل، ببطء، لكن رائحة كريهة جدًا، هبّت من الداخل، توقفت أنهار قبل أن تنصحها سعدية: «خدي نفس كبير وادخلي».

دلفتا إلى الغرفة المظلمة، فيما أعلن السيد أنه لن يتمكن من الدخول، فلم تراجعه سعدية، وإنما أخذت منه الشعلة دون كلمة، ودلفت إلى الداخل، ومن خلفها أنهار..

«هوّ في إيه؟».

كان الفضول قد تسرب إلى قلب أنهار أخيرا، ما أثار حماسة سعدية التي أخبرتها بلهجة واثقة:

«هتفهمي كل حاجة حالا، بس المهم عاوزاكي تزيحي ده معايا».

هكذا تعاونتا لإزاحة غطاء ثقيل يغطي بئرًا تتوسط الغرفة، ما إن تزحزح الغطاء قليلا، حتى صدرت رائحة لا تُطاق،

لكن سعدية لم تتراجع، حيث أخذت تصيح فيها: «هِمتك.. زيحي».

هكذا ظلتا لدقائق تحاولان إزاحته، حتى انكشف جزء كبير منه، لكن أنهار كانت على وشك فقدان الوعي، لم تكن الرائحة تُطاق، لكن سعدية، شجعتها: «عاوزاكي تبصي كويس أوي هنا.. هنا الحقيقة كلها».

ثم دلّت المصباح في يديها لأسفل، فانكشف جانب من البئر العميقة، الخالية من الماء، في هذه اللحظة كانت أنهار تقيء بالفعل. حاولت الخروج، لكن سعدية أمسكت بيديها، وأبقتها رغمًا عنها قائلة: «هو ده مصير المختارين؛ العمدة بيرميهم تحت، في الضلمة وسط الحجارة، منهم اللي بيموت على طول ومنهم اللي بيقعد يتعذب شوية لحد ما يموت، إن ماماتش من الخبطة، بيموت من الرعب!».

عند هذه النقطة بدا أن أنهار قد فقدتْ وعيها، لم تدرِ سعدية لحظتها هل بفعل الرائحة، أم بسبب ما عرفته لتوها، نادت السيد، الذي عاونها لإعادة الغطاء، وإخراج أنهار الراقدة على قيئها إلى الخارج.

أحكم السيد غلق البوابة الثقيلة لغرفة «بئر الأمنيات»، ذلك الذي يطلب العمدة من المختارين الوقوف على حافتها وإغماض أعينهم مع طلب أمنية عزيزة، بينما يرفعون رءوسهم إلى السماء طمعًا في الإجابة، يقنعهم أن الرائحة الصادرة من أسفل هي ضريبة صعودهم إلى العلا، على

المختار احتمالها، ورفع رأسه إلى أعلى، في انتظار قدوم توفيق، لكنهم فجأة ينحدرون إلى أسفل سافلين، حيث الجِيَف والبقايا المتحللة، فيسارع رجال العمدة لإغلاق الغطاء، والابتعاد عن المكان.

سرث قشعريرة شديدة في جسد أنهار، وراحت تتصبب عرقًا، قبل أن تخبرها سعدية: «استني لسة المفاجأة الكبيرة».

لم يكن ثمة مكان آخر في رأس أنهار لتلقّي أي أمر جديد، لكن سعدية لم تدغ لها مجالا، حيث جذبتها من يديها إلى غرفة صغيرة في نهاية ممر طويل داخل البيت المظلم، حيث ضوء ضعيف متراقص، ألقى بظلاله على طفلة صغيرة ممددة على سرير متهالك، كتمت أنهار صرخةً كادت تخرج من فمها، فمنعتها بكلتا يديها، بينما قالت لها سعدية: «البت بتتحشن، كانت بين الحياة والموت».

«دي البلد كلها بتدور عليها، والعمدة هيموت ويلاقيها، هستستفيدي منها إيه.. رجّعيها لأهلها».

«دي مفتاح الخلاص ونقطة النهاية».

«إزاي؟».

«بكرة تعرفي».

بين اليقظة والنوم عادت أنهار مترنحة بصحبة أنهار والسيد، بينما كاد الفجر أن يبزغ، في القرية التي كان أهلها ينتظرون وقت الظهيرة بفارغ الصبر. رقدت أنهار فوق

سريرها بانتظار مَن يوقظها، فيما انطلقت سعدية تتحمّم وتتعطر في انتظار الحدث العظيم، لم يراود النوم جسدها المحموم بالحماس، وعقلها الذي بدا لها وكأنه أضاء فجأة في انتظار الساعة الموعودة، حيث كانت على موعد مع السيد قبيل ساعة الظهيرة، كي يسلمها «أمانة».

***

كانت شمس قرية المائة، تُحيل ظهر ذلك اليوم الشتوي، صيفًا حارقًا، هكذا التهبت الجباه الناظرة نحو جامع القرية، أسفل حرارة ونور لم يبدُ أنهما ظهرا قبل هذا اليوم، لم يكن الباب قد انفتح بعد، لكن الجميع كانوا هناك، وما إن أذّن المؤذن، حتى وقف العمدة قبالة الباب، أعلى درجات عديدة، ينبئ أهل القرية أن صغيرتهم صارت مختارة، وأنها الآن في مكان أعظم، مع كل المختارين في قرية المائة، مَن سبقها ومَن سوف يلحق بها.

تنفّست الصدور الصعداء، فقد صار لعوض مصير، لكن صوتًا رفيعًا انطلق من فوق المئذنة العالية، حيث فوجئ العمدة، بسعدية في الأعلى حاملة عوض الصغيرة. احتبست الأنفاس في الصدور، بينما انطلقت صرخات هستيرية متتالية من حسنية، لكن أحدًا لم يكن منتبهًا سوى لذلك الصوت الرفيع المنسل من أعلى، وهو يصرخ: «عمدتكم كذاب.. البت عايشة».

سرت همهمات، لكن سعدية واصلت حديثها فأنصت

الجميع: «توفيق مقتول يا ناس من سنين، قتله عثمان الكبير زي ما قتل مراته، وقتل أهلكم، فوقوا بقى عمركم ما كنتم ١٠٠.. طول عمركم ٩٩».

كان أهل القرية قد اجتمعوا في تلك اللحظة أسفل مئذنة مسجد القرية الذي يحمل اسم العارف بالله توفيق، وكان العمدة من بين الواقفين، بينما راحت سعدية تهتف بعنف: «غيتوا نفسكم واخرجوا شوفوا حياتكم قبل ما يرميكم ف البير».

لكن العمدة الذي كان يقف مبتسمًا بثقة، لم يتحدث، وإنما تكفل عوض بالحديث عنه قائلا: «بنتي خفاها عمير ورجّعها، وتوفيق مات بالجسد لكنه باقي بروحه وبيته وبركته وكراماته، والست دي عاوزة تفرقنا وتشردنا بين البلاد».

صرخت سعدية من أعلى: «بيت توفيق موجود، والبير موجود، فيه حبايبكم، وعوض أهي بين إيديكم، روحوا كلكم على هناك.. الباب مفتوح عَ النيل ادخلوا واعرفوا السر بنفسكم».

قالتها وراحت تنظر للجمع في الأسفل، لكن أحدًا لم يتحرك في تلك اللحظة، كان ضوء الشمس حارقًا للدرجة التي جعلتها ترى رءوس الواقفين في الأسفل كأنما التصقت بأقدامهم، من دون أجساد، فبدت لها رءوسًا في النعال؛ لذا صمتت قليلا لتتحقق مما ترى، فأدرك العمدة أنه حان وقت الحديث: «مين فيكم شاف كرامات توفيق؟».

أمّن الجميع أنهم رأوها بالفعل، فيما واصل هو حديثه بصوت جهوري مؤكدًا: «توفيق موجود وحي فينا وبينا، ما يحلّش مكانه شخص ولا ينفع يتحسب غايب، اللي شاكك فيّا يطلع على بيت توفيق، واللي عايز يعرف المختار بيطلع فوق ولا بينزل تحت يقدر يتأكد بنفسه، أما اللي مصدقني فيروح على بيتهم في أمان، ويستنى الشعلة الجديدة لأنها هتكون من نصيب سعدية.. المختارة الجديدة».

كانت أنهار هي أول العائدين، من بين الجمع الغفير. كانت خطواتها ثقيلة، لكنها واثقة، حتى خُيل لسعدية في الأعلى أنها تخطو فوق صدرها. نظرت وراءها إلى أعلى، صوب سعدية الواقفة هناك، نظرة دون معنى، ثم لم يعُد لها أثر وسط الجموع التي انقشعت في الوقت ذاته، فلم يعُد يقف أسفل المسجد سوى سيادة وداود وحسنية، بينما أحاط رجال العمدة بالمسجد في انتظار نزول سعدية.